الدكتور محمد البهي

نحو.. القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

نحو.. القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانيــة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

مطابع المختار الاسلامى
١٤٥ طريق المعادى الزراعى - محطة المطبعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

.. نزل كتاب الله وقرآنه ، موحى به إلى رسول الله محمد بن عبد الله : عليه الصلاة والسلام . وجمع ، ودون فيما نقرأه اليوم فى مصحف عثمان . وبقى كما أنزل لم يتغير ، لأن التغير ليس من طبيعته . إذ هو لله . وما كان لله : باق ، فوق الزمان .. والمكان .. وفوق عوامل التغيير جميعها .

.. والذى يتغير هو ما حول القرآن من أفهام الناس .. ونظراتهم .. وما لهم من آراء وقد يقتربون منه ولهم نوايا طيبة ، وقد تكون لهم أغراض لا إنسانية ، أو لهم تصورات منبثقة عن حسن تقدير ، ولكنها تخرجه عن دائرة رسالته ، أو لهم آراء سيئة مبيتة .

والناس عندما يقتربون من القرآن يقتربون منه : إما ليستلهموا رأيه .. أو يفرضوا عليه رأيهم ، أو تصوراتهم :

فمن استلهمه الرأى أعطاه الحجية فى إعجازه .. وفى ملاءمته لتوجيه الطبيعة الإنسانية .

ومن فرض عليه الرأى المبيت .. أو التصور البرىء : أخرجه عن هدفه .. أو عطله من رسالته .. أو رده إلى خرافة .. أو نقله إلى بدائية .

.. وهذا البحث : « **نحو .. القرآن** » .. الذى نقدم له الآن : يعرض فى بابين .. أثر النوعين من الاقتراب نحو القرآن : على القرآن نفسه .

فالباب الأول : يعرض الأثر الناتج عن اتجاه المستلهم له . وهو أثر يتبلور فى فصلين :

الفصل الأول : فى إعجاز القرآن .. من الناحية الموضوعية ..

والفصل الثانى : فى إعجازه من ناحيـة الملاءمة فى توجيهـه لطبيعـة الإنسان .

والباب الثانى : يجعل الأثر الناتج عن ذلك الاتجـاه الذى يقترب من القرآن ، فى صحبة تصور برىء .. أو رأى مغرض مبيت من قبل . وهو آثر يشار إليه فى فصلين كذلك .

الفصل الأول : فى تفسير القرآن ، تفسيراً غير موضوعى .

والفصل الثانى : فى التحـديات التى يدفع بها المغرضـون بالأمس ، واليوم : لتجميد رسالته .. أو لنقلها من مستواها الإلهى المعصوم إلى عمل للإنسان : يصيب ، ويخطىء . وربما يخطىء أكثر مما يصيب .

ولذا : كان الباب الأول ــ وهو كتـاب الله فى حجيته ــ يتضـمن : موضوعية التوجيه ، وإعجاز القرآن فى فصل .. وبين طبيعـة الإنسـان ، وهداية القرآن فى فصل ثان .

بينما الباب الثانى ــ وهو صنعة الإنسان حول كتاب الله ــ يشمل : القرآن ، والتفسير الموضوعى فى فصل .. وتحديات القرآن بين الأمس ، واليوم ، فى فصل أخير .

.. وهذا البحث يستهدف توجيه المفكرين من المؤمنين : إلى القرآن ، قبل اتجاههم إلى من يسألونهم عما دونوه ، وكتبوه حول القرآن . وكتاب الله مفتوح لكل من صفا قلبه ، وقوى إيمانه . وما كتب حوله ممن اقترب منه : هو فى المتناول : للاطلاع عليه فى كل وقت . ولكن له المنزلة الثانيـة بعد كتاب الله ، وليس معه ، أو قبله .

والله الموفق ..

مصر الجديدة : فى { ٢٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٩٣ هـ
٢٨ من مايو سنة ١٩٧٣ م }

محمد البهى

* * *

الباب الأول

كِتَابُ اللهِ في حُجِّيَّتِهِ

- موضوعية التوجيه ـ واعجاز القرآن
- بين طبيعة الانسان ـ وهداية القرآن

الفصل الأول

موضوعية التوجيه .. وإعجاز القرآن

● **تمهيد :**

كلما كان مصدر التوجيه موضوعيا .. كلما كان أقرب إلى التعبير عن المستوى الإنسانى الرفيع : فى التفكير .. وفى الذوق .. وفى الإرادة والعمل .. وفى الوقت نفسه كلما بعد أن يكون فى مقدور الإنسان المتوسط ، ويكاد يكون خاصاً بأصحاب المواهب والمتفردين فى نشاط الإنسان الفكرى .. والذوقى .. والإرادى أو العملى .

فإذا خلص مصدر التوجيه : لموضوعية التوجيه .. ولموضوعية المبادىء التى تصور القيم الرفيعة فى الفكر الإنسانى .. وفى صفاء العلاقات واتسامها بجمال الإنسانية ، وفى العمل والتطبيق وبعده عن الضلال والحيرة : كان هذا المصدر فوق طاقة البشر ، وبالتالى كان معجزاً للإنسان ، مهما استعان فى مثله بآخرين معه فى الطاقة والقدرة على الإنتاج . وحينئذ يقال : إن هذا المصدر معجز .. كما يقال : إن الذى يدعو لما فيه .. يدعو بتكليف من قوة فوق قوة الإنسان ، وليس من ذاته .. وقد اختير هذا الداعى من تلك القوة المتفوقة لأداء رسالة الدعوة إليه . فهو رسول ... وما يدعو إليه : رسالة .

وإذا ثبت أن رسالة الله التى أرسل بها رسول لم تزل تصور موضوعية التوجيه البشرى فيها لخلوها من التحريف .. فإنها عندئذ تكون الأصل أيضاً فى بناء الحضارة الإنسانية . أى فى بناء ذلك الإطار الذى يضم كل قيمة رفيعة يسعى إليها الإنسان .. والذى يتحرك فيه الإنسان المتحضر . ذلك الإنسان الذى يرى أن السلام ــ سلام النفس .. أو سلام العلاقات بين النفوس ــ هدف الإنسان فى حياته . وسيشير الإيمان بذات الله فى هذا الإطار الحضارى ، بما لهذه الذات من صفات عديدة : إلى جميع القيم الرفيعة التى يجب أن يسعى الإنسان المتحضر لمحاكاتها فى : تفكيره .. وإحساسه بالجمال .. وإرادته فى العمل .

فكل صفة من صفات الله تعتبر قيمة رفيعة يسعى الإنسان المؤمن بالله إلى محاكاتها : فالخلق .. والإبداع .. والعلم .. والحياة .. والإرادة .. والقدرة .. والشدة .. والرحمة .. والغنى .. والسلام ..والهيمنة .. إلى بقية الصفات الأخرى له : هى قيم عليا يحاكيها من يؤمن بالله ، ويعبده .

والإيمان بالله إذن هو : منطلق اليقظة إلى وجود القيم الرفيعة فى حياة الإنسان فى إطار الحضارة البشرية . بينما عبادة الله ــ أو الإسلام أو الخضوع والامتثال لله ــ هى السبيل إلى تحريك الإنسان المؤمن فى سعيه نحو محاكاة صفات الذات له جل جلاله ، كقيم عليا ينشدها الإنسان ، إذا ما فكر .. أو أراد ، وعمل فى إطار حياته الخاصة .. أو فى دائرة حياته مع الآخرين فى مجتمعه .

والدين إذن إذا كان منهجا وطريقاً فمرتكزه الأول والأخير الإيمان بالله . وبغير الإيمان بالله لا يعى الإنسان غير المؤمن قيما عليا فى حياته .. وبالتالى لا يتحرك فى السعى نحو محاكاتها .

والحضارة الإنسانية هى ــ بعد ذلك ــ إيمان بالله ، طالما هى مجموع النشاط الإنسانى فى تفكيره .. وفى ذوقه وإحساسه بالجمال .. وفى مجاله الإرادى الحر . ذلك النشاط الرفيع فى مستواه ، ولن يكون نشاط الإنسان رفيعاً فى مستواه إلا إذا وعى القيم العليا أولا وسعى إلى محاكاتها بعد ذلك .

وذلك عن طريق الإيمان ... والإسلام ، أى عن طريق الإيمان بالله .. والإذعان له فى عبادته إياه .

* * *

● **ما قيل فى اعجاز القرآن :**

وقد قيل كثيراً عن إعجاز القرآن ، ولكن ربما لم يقل حتى الآن عن إعجازه ، عن طريق موضوعية التوجيه فيه . كما لم ينوه بالربط بين موضوعية التوجيه وقيام الحضارة الإنسانية .

● **اعجاز القرآن بالاسلوب :**

هناك من يقول من العلماء بأن إعجاز القرآن ، وصدق دلالته على رسالة الرسول محمد عليه السلام ، يعود إلى أسلوبه العربى : فى البلاغة .. والفصاحة .. وحسن الصياغة والتركيب . ويعتمدون فى ذلك على مثل ما جاء فى سورة البقرة من قول الله تعالى : « **وان كنتم فى ريب** (والخطاب موجه إلى المشركين الماديين بمكة) **مما نزلنا على عبدنا** (والذى أنزل هو القرآن .. وعبد الله هو رسوله محمد عليه السلام) **فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله** (وهم أصنامهم يحضرون معهم) **ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين** » (١) ..

... فالقرآن يتحدى الكافرين به والذين يعارضونه ـــ وهم عرب مثل الرسول عليه السلام ـــ وأكثر تمرساً منه على الأسلوب فى التعبير : بأن يأتوا بسورة مماثلة لسوره . ولهم أن يستعينوا بما يشاءون من أنصارهم ومعبوداتهم : فى الإتيان بالسورة المماثلة المطلوبة . وفى الوقت الذى يتحداهم القرآن بذلك : يقطع : بأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالسورة المماثلة . لأن القرآن من عند الله ، وليس من صنع البشر إطلاقا . وما كان لله لا ترقى لكماله : صنعة الإنسان ، أى إنسان .

ففهم الذين يقصدون بالإعجاز : إعجاز الأسلوب فى البلاغة ،

---

(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

والفصاحة ، وجودة التعبير : من مماثلة السورة المطلوبة فى التحدى ... مماثلة الأسلوب العربى للقرآن . فإذا عجز المكيون ــ وهم عرب ــ عن ذلك : قامت الحجة عليهم ، وألزموا بالتالى بصدق الرسول محمد عليه السلام . وطالما ألزم المكيون بصدق رسالته بسبب عجزهم عن الإتيان بسورة مماثلة ... فالبشر جميعاً يلزمون كذلك بصدقها . لأنه عندئذ : يلزم العرب المكيون باعتبار أنهم أهل الاختصاص بين الجنس البشرى بأسلوب القرآن ، ومتى قامت الحجة على أهل الاختصاص ، فإنها تقوم على الباقين الآخرين بين الناس جميعاً : بالأولى .

ولكن إذا قرأنا تعليق القرآن على تحديه فى هذا الشأن ، فى قول الله تعالى فى سورة يونس :

« **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه** (أى من التوراة والإنجيل) **وتفصيل الكتاب** (وهو الرسالة الإلهية عامة) **لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** » (٢) ..

.. إذا قرأنا تعليق القرآن هنا فى قوله : « **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** » .. فإن هذا التعليق يشير إلى أن رفضهم للقرآن كان مبكراً وسابقاً على إحاطتهم به .. وكذلك كان سابقاً على عدم وقوفهم على مبادئه وأهدافه . إذ لو أنهم أولا : أحاطوا به علماً .. ووقفوا على أهدافه ومبادئه ... ربما ترددوا فى رفضه ، لأن فيه من المبادىء والأهداف ما يحمل غير المتحزب لهواه على الاعتراف به كمصدر صالح لتوجيه البشرية .

وفى مضمون هذا التعليق ما يدل : على أن « المماثلة » المتحدى بها ، ليست مماثلة اختيار اللفظ ، وحسن صياغة التركيب ، بقدر ما هى : فى صلاحية مبادئه للبشرية وعمومها للناس كافة .. وبقدر ما هى فى تجردها عن البواعث الخاصة . ولو كانت هذه المبادىء من شخص ، ونتيجة لظروفه وبيئته الخاصة ، لما كان لها عموم الصلاحية فى التوجيه عندئذ .

❋ ❋ ❋

---

(٢) يونس : ٣٧ ــ ٣٩

● **اعجاز القرآن .. باخباره بالغيب :**

ويرى بعض آخر من العلماء : أن فى بعض آيات القرآن الكريم ما يعبر عن نهايات معينة لبعض مجتمعات بشرية ، أخبر بها قبل أن تقع .. وفى وقت يظن الناس فيه : أن عكس هذه النهايات التى أخبر بها : هو الصحيح لبعض هذه المجتمعات . فيقول فى سورة آل عمران :

« **قل للذين كفروا** (وهم المكيون الماديون) **ستغلبون** (أى سينتصر عليكم المؤمنون بمحمد عليه السلام) **وتحشرون الى جهنم ، وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا** ، (فى غزوة بدر) **فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، أن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » (٣) ..

.. فأخبر القرآن عن نهاية المجتمع المادى فى شبه الجزيرة العربية بانتصار المؤمنين على الماديين فيه ، فى وقت كان يتمتع به هؤلاء الماديون بقوة عددية ، وإعدادية .. بينما المؤمنون كانوا على ضعف فى العدد ، والعدة معاً . وضرب القرآن بما انتهى إليه الأمر فى « بدر » مثلا على ما أخبر به من النهاية الأخيرة للماديين التى تنتظرهم .

.. ويقول فى سورة الروم :

« **آلم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض** (أى فى الأرض القريبة المجاورة لشبه الجزيرة العربية . وهى أرض الشام . وقد غلبت الروم فى الحرب الشاملة بينها وبين الفرس ، والتى ابتدأت فى سنة ٦٠٣ بعد الميلاد ، واستمرت حتى بعد سنة ٦١٠ على عهد الامبراطور الرومانى هيرقل « Heraclius » الذى دام حكمه من ٦١٠ — ٦٤٢ . وفى هذه الحرب اكتسح الفرس الرومان . واحتلوا : حلب .. ودمشق .. ومعظم المدن السورية الأخرى فى سنة ٦١١ ، كما سقطت القدس فى أيديهم سنة ٦١٤ — ٦١٥ ، تقريباً سبع أو ثمانى سنوات قبل هجرة الرسول إلى يثرب . وقد أحرقت القدس ، وحوصرت ، ونكل بالمسيحيين هناك ، كما أحرقت الكنائس ، وسلبت الآثار المسيحية المقدسة : وفى مقدمتها : الصليب الذى يدعى أن

---

(٣) آل عمران : ١٢ ، ١٣

المسيح صلب عليه . واحتفل رجال الدين فى فارس بانتصارهم على رجال المسيحية فى القدس) .

« **وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين** » (وابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته فى سنة ٦١٠ ، وأعلن تبليغه الوحى إلى الناس . وفى هذا الوقت الذى شغل فيه العالم إذ ذاك بانتصار الفرس على الروم ، واعتقد ، أنه انتصار فاصل .. يوحى الله إلى رسوله عليه السلام : بأن هذا النصر قريب الأجل ، أى لا يستمر إلا بضع سنين .. وبأن الرومان سينتصرون على الفرس بعد مضى هذه السنين القلائل انتصاراً ساحقاً . أخبر القرآن بذلك ، والرسول بمكة ، ولم تتقرر هجرته بعد إلى يثرب . وحصل الرومان على النصر فى عهد هيرقل (٦١٠ ـــ ٦٤٢) أو بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كانت سنة ٦٢٢ م . وقد احتفل هيرقل بهذا النصر فى مدينة القسطنطينية أولا فى سنة ٦٢٨ ، أى بعد الهجرة بست سنوات . ثم سار من القسطنطينية إلى مدينة حمص بالشام .. ومن هناك إلى القدس . وأعاد الوضع المسيحى ، الذى كان للإمبراطور الرومانى من قبل) .

« **لله الأمر من قبل ومن بعد** » (أى أمر الهزيمة والنصر ـــ وكذلك كل شأن فى نهايته ـــ يرتبط بإرادة الله وحده) .

« **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** » (أى وانتصار الرومان بعد هزيمتهم : على الفرس ، هو بشرى للمؤمنين يفرحون بها . لأنه انتصار دولة سيعقبه فناء أمة . فالنصر عقد الآن لدولة هيرقل . ولكن سيتحول إلى فناء الإمبراطورية الرومانية فى الشرق كله .. وفى شمال أفريقيا ، ويرثهم المؤمنون فيما لهم من ديار .. وأموال .. وشعوب . وهكذا : الحرب بين الرومان والفرس ـــ بغض النظر عن المنهزم والمنتصر فيها ـــ كانت مقدمة لنشر الإسلام وعزة المؤمنين : فيما كان للإمبراطوريتين معاً . ونصر الله الذى يفرح به المؤمنون هو نصره للمؤمنين أنفسهم فى شبه الجزيرة .. وما وراء الجزيرة . وليس نصره للرومان باعتبار أنهم أهل كتاب ، كما يدعى فى كتب التفسير . وإلا : هل أهل الكتاب مؤمنون بالله فى الوقت الذى

يقولون فيه : بالتثليث .. وبألوهية المسيح .. وبادعائهم : أن عزيراً ابن الله ؟. يجيب القرآن الكريم على ذلك بقوله : **« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد » (٤) ..**

« ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٥) .. (والله لم يعـد بنصره إلا المؤمنين وحدهم . وهذا يؤكد : أن فرح المؤمنين بنصر الله ليس هو بنصر الرومان على الفرس . ولكن بنصر المسلمين أنفسهم : فى « بدر » أولا .. ثم بعـد ذلك خارج الجـزيرة فى دنيـا الإمبراطورية الفارسـية ، والأخـرى الرومانية) .

.. وهكذا يخبر القرآن بأمرين تحققا بعد فترة من الزمن :

أولا : يخبر قبل الهجرة من مكة إلى يثرب بانتصار الروم على الفرس . ولم يقع هذا الانتصار إلا بعد ست سنوات من الهجرة .

ثانياً : يخبر بأن المؤمنين سيفرحون بنصر الله لهم على الماديين المكيين بشبه الجزيرة ، وعلى الروم والفرس جميعاً . ويخبرهم بذلك وهم أيضاً بمكة يلقون الهوان من المكيين الذين لا يعدون شيئاً فى مواجهة الفرس ، أو الروم . وقد فتح المسلمون مكة انتصاراً على المشركين ، ودخلوا بيت المقدس ، كما فتحوا القسطنطينية ، ودخلوا فارس وأطراف الإمبراطوريتين .

فإخبار القرآن بهذه الأمور المغيبة يتخذه بعض العلماء دليلا على صدق الرسول عليه السلام فى رسالته . فالرسول عليه السلام كإنسان ليست له من الأهلية أن يخـبر بما أخبر به القـرآن هنا . والقـرآن إذن ليس من الرسول ، ولا صادراً عنه . بل هو وحى من الله إليه .

ولكن أيضاً لو قرأنا فى شأن القرآن فى مواجهة المكيين الماديين ، قـول الله تعالى :

« أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان فى ذلك لرحمة

---

(٤) المائدة : ٧٣ (٥) الروم : ١ ــ ٦

وذكرى لقوم يؤمنون » (٦) .. في رده على الماديين المكيين عندما طلبوا آية مادية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في قولهم قبلا : **« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه »** (أي عدا القرآن) **قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين »** (٧) .. لو قرأنا هذا الرد : لبان لنا أن أمراً آخر وراء الإخبار بالغيب وهو ما ينطوي عليه القرآن من هداية لصالح الناس **« ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »** .. هو السر في حجيته الآن ، وفي كونه دليلا على صدق الرسول عليه السلام .

ولكن ليس معنى ذلك : أن الإخبار بالغيب .. كحسن النظم والصياغة في الأسلوب من قبل .. ليسا من الجوانب المميزة في القرآن ، والتي تدل على سموه وارتفاعه عن طاقة البشر . إلا أنه قد يواجه الإخبار بالغيب : بأن تحققه كان من الصدفة ، أو كان نتيجة لنظرة بعيدة في حركة التاريخ وظروف أحداثه . كما قد يواجه الأمر الثاني بأن إدراك قيمة الصياغة في أسلوبه وقف على أناس معينين ، وفي جيل خاص ، وهو جيل المنافسة في التعبير في الأسواق الموسمية ، التي كانت تقام من وقت لآخر في شبه الجزيرة .



● موضوعية التوجيه :

إن أي عمل عادي للإنسان ـ أي ليس فوق مستوى البشر ـ قد لا يسهم إطلاقاً في الحضارة البشرية . وكلما تميز عمل لإنسان : في دقته .. وفي إبداعه .. وفي تجرده عن البواعث الشخصية والأهداف الخاصة : كلما كان إسهامه في بناء الحضارة ، بقدر ما له من مستوى ودرجة في التمييز .

إن الحضارة الإنسانية بمعناها الذي ينم عن جوانب الإنسانية في : الذوق والجمال .. والإرادة والعزم .. والفكر والمنطق : هي حصيلة الإسهامات العديدة من الأفراد في هذه الجوانب . ولا يدخل هذه الحصيلة

---

(٦) العنكبوت : ٥١ .

(٧) العنكبوت : ٥٠ .

إلا ذلك الإنتاج للإنسان الذى كان أقرب إلى قمة الإنسانية ، منه إلى مستوى آخر أدنى من هذه القيمة .

والتجرد فى الإنتاج عن البواعث الشخصية والأهداف الخاصة هو الإطار العام ـ أو الضابط الكلى ـ لما يسمى بمستوى القمة فى الإنسانية . لأن عيوب الإنتاج الإنسانى : أو النقص فيه ، الذى يصحبه : يرجع إلى مدى تأثر الشخص فى إنتاجه بعوامل غير إنسانية .. أى إلى تأثره بما يتصل بأنانيته . لنأخذ مثلا : عدم الإبداع فى الإنتاج . نجد أنه لا يعود إلى عدم المهارة وحدها ، ولا إلى عدم التمرس فيه فقط . وإنما لعامل آخر عداه ، حتى ولو توفرت المهارة للإنسان المنتج . وهذا العامل هو عدم الإخلاص للروح الإنسانية فيه . فالذى يركز على الكسب المادى من وراء إنتاجه الفنى لا يبدع فى إنتاجه . والذى يؤثر الكم فى إنتاجه على النوع فيه ، مع توفر المهارة الفنية له : لا يبدع أيضاً فى الإنتاج . ومن ثم لا يبدع فى العمل ولا يتقنه . ومن لا يتقن العمل يعرض غيره للخداع وقبول الخدعة . ومن يعرض غيره للخداع يبعد كثيراً عن قمة الإنسانية ، بل ربما ينزل تماما عن مستواها .

ومهما كان من شأن الإنسان فى تجرده فإنه بحكم شهوته وهواه .. أى بحكم غرائزه وميوله : فإنه لا يصل فى عمله إلى القمة فى مستوى الإنسانية . أى أن عمله : إن دل من جانب على سمو فى إنتاجه .. فإنه من جانب آخر يدل على تدل فى هذا السمو ، لا يرقى به إلى القمة . فحتما سيوجد نقص ، تأثر فيه بظروف ذاته الخاصة .

ويعنى ذلك : أن التجرد التام فيما يعبر عن مستوى الإنسانية .. وفيما يضع للمستوى الإنسانى من مبادىء : ليس فى استطاعة الإنسان . وهو بالتالى خارج عن إمكانياته البشرية ، ويمثل بالأحرى قدرة فوق قدرته ، وطاقة عليا لا يصل إليها الإنسان مطلقاً . والحضارة الإنسانية التى تقوم على هذا المستوى الكامل من التجرد هى حضارة أصيلة فى تعبيرها عن الإنسانية .. وفى صلاحيتها للبشرية .. وفى اقتباس الإنسان منها ، والهداية بها : فيما يفكر .. ويريد .. وفيما يسلك .

فهل تجرد القرآن فيما عبر للإنسانية من مبادىء ؟

هل كانت مبادئه فوق إنتاج الإنسان ــ أى إنسان ــ وتصور فى ذاتها قمة الإنسانية فى أعلا مستواها ؟

هل القرآن خارق للعادة .. أى هل هو معجز للإنسان ؟ .. وهل هو آية صدق على أن المتحدث به لم يتحدث به من ذاته .. وبسبب ذاته ؟ .

* * *

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتحدث عن القرآن من ذاته . ولا بسبب ذاته .. إنه أوحى إليه ، وكلف بتبليغه للناس . وآية ذلك :

أولا : أنه سجل أنواعاً من العتاب لرسول الله عليه السلام بسبب ما أخذ عليه فى سياسته فى الدعوة .. وما أخذ عليه كذلك فى سياسته الأخرى فى الحرب ، بما يفضل الإنسان عادة أن لا تذكر هذه المآخذ علناً وفى سجل تاريخى .

ثانياً : أنه سجل خصوصيات أسرته ، بما لا يرغب الإنسان عادة فى أن يعلمه غيره من الناس . وما سجله هنا وهناك .. يدل آكيداً على آن الرسول عليه السلام لم يتحدث بالقرآن من ذاته .. ولا بسبب ذاته . فليس هناك إنسان يتحدث من ذاته وبسبب ذاته فى إنتاجه الفكرى : وينبغى أن يتحدث عما أخذ عليه فى السياسة والتوجيه .. أو عما يسىء عادة وبحسب العرف : له فى أسرته الخاصة .

.. يسجل القرآن ما أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سياسة الدعوة :

من أنه لم يتخلص تماماً ــ ويستحيل عليه ذلك لأنه بشر ــ من التأثر بالزعامة والجاه فى قومه .. وأنه من أجل ذلك مال نفسياً إلى مجاملة الزعماء والوجهاء ، ولو على حساب الضعفاء المؤمنين به .. أى ولو على حساب عواطفهم وأحاسيسهم . ويشير إلى قصة ابن أم مكتوم ، فيما يحكيه فى قول الله تعالى :

« **عبس وتولى** . (أى قطب الرسول عليه السلام وجهه وأعرض

بميله ونفسه) **ان جاءه الأعمى** . (أى عندما قدم عليه الأعمى وهو عبد الله ابن شريح بن مالك بن ربيعة الفهرى من بنى عامر بن لؤى : المعروف بابن أم مكتوم ، وقد أخذ يكرر السؤال له : عن رغبته فى أن يعلمه الرسول شيئاً مما نزل عليه من الوحى . وهنا كان عليه السلام مشغولا ببعض وجهاء قريش فلم يعره أهمية وضاق صدره به . وممن كان مشغولا بهم : عتبة وشيبة ، ابنا ربيعة .. وأبو جهل بن هشام .. والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف .. والوليد بن المغيرة) .

« **وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى** . (وهنا سبب العتاب على الرسول عليه السلام فى أنه لم يلتفت إلى ابن أم مكتوم . وكأنه يقول له : إن هذا الأعمى ربما يرجى منه الخير للدعوة . فقد تزداد نفسه صفاء .. وبالتالى يزداد إيماناً بها . وعندئذ لا ينسى ما تعلمه من أمرها .. ولا يقصر فى ترديده للآخرين) :

« **أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك الا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى** » (٨) .. (أى من أمثال ما اتجهت إليهم أيها الرسول عليك صلوات الله ، وانصرفت لشأنهم عن شأن هذا الضعيف . فهؤلاء بسبب زعامتهم وجاههم .. وبسبب ما يملكون من مال : يرون أنهم فى غنى عن أن يتبعوك ويكونوا لك مؤمنين بما تدعوهم إليه . ولا يهمهم أن تتطهر نفوسهم من المظالم والعبث ، بقدر ما تهمهم : المحافظة على الجاه والزعامة . وبهذا الانصراف عن الأعمى من جانب . والإقبال على هؤلاء الوجهاء من جانب آخر : أملت فيمن لا يؤمل فيهم .. وتركت من موضع الأمل ، بشأن دعوتك . وما فعلت ذلك إلا تحت الانطباع الذى يخلقه الجاه ، وتوحى به الزعامة . وهو انطباع خادع يحمل على الظن بالانتفاع بأصحاب الجاه والزعامة ، مع أنهم الذين يربحون دائماً ويتركون غيرهم يعيشون فى أمل فيهم والتقرب إليهم) .

.. ويوضح له هذا المعنى فى صورة قانون عام : فيما يقصه فى سورة الكهف

---

(٨) عبس : ١ ــ ١٠

.. « **واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك ، لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** » (أى ملجـأ) **واصبر نفسك** (أى خذ نفسك بالصبر والتحمل) **مع الذين يدعـون ربهـم بالغـداة والعشى يريـدون وجهـه** (أى مع أولئكم الذين أخلصوا فى إيمانهم لله وحده ، والذين يتجهون إليه فى كل اوقاتهم ، لا يطلبون منفعـة مادية . إنما يقصـدون وجهه ورضـاه فحسب) .

« **ولا تعـد عينـاك عنهم** (أى لا تتجاوز ببصرك هؤلاء المخلصين . وهم الضعفاء فى القوم) **تريد زينة الحياة الدنيا** ، (بالاتجاه إلى الآخرين من الزعماء وأصحاب الجاه) .

« **ولا تطع من أغفلنا قلبـه عن ذكرنا واتبـع هواه وكان أمـره فرطا** . (وهم أولئكم المستكبرون : أصحاب الزعامة والنفوذ) .

« **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر** » (٩) ..

.. فى هذه الآيات يأمر الله سبحانه رسوله محمداً عليه السلام بأمـور تحدد : معالم الطريق السليمة للدعوة :

أولا : يأمره بأن يقتصر فى تبليغه للناس على ما يوحى إليه من كتاب الله .. ولا يتجاوزه بحال . لأنه لا يقبل التبديل ، كما أنه ليس وراءه مصدر آخر لتوجيه البشرية .

ثانياً : يأمره بالوقوف بجانب المخلصين فى إيمانهم من أولئكم الضعفاء ومن آحاد الناس فى قومه . فالخير كل الخير فى الوقوف بجانبهم ، وتحمل ما يثيرونه من أسئلة . ولا يترك هؤلاء ليؤمل فى الآخرين من أصحاب السيادة والنفوذ فى المجتمع . لأنه لو فعل ذلك يكون قد انصرف بالفعل عن الدعوة ، وتأثر بمفاتن الدنيا وزينتها .

ثالثاً : بأنه يحذر من أن يقع فى طاعة الكبراء والزعماء فى المجتمع ، إذ أن هؤلاء لا يتبعون فى سلوكهم وتصرفاتهم إلا هوى نفوسهم .. وقد بلغ وقوعهم تحت تأثير هواهم : مبلغاً لا رجاء فى العودة منه . ومن ثم أغلقت قلوبهم دون ذكر الله ، فضلا عن الإيمان به .

---

(٩) الكهف : ٢٧ — ٢٩

رابعاً : إن وظيفته لا تتجاوز : ذور عرض الدعوة ، مجردة عن كل مؤثر خارجي . حتى يؤمن بها من يؤمن .. ويكفر بها من يكفر : عن حرية ومشيئة إنسانية خالصة .

.. ويؤكد له مرة أخرى : طلبه فى : أن يتسع صدره عليه السلام لأولئكم الضعفاء من المخلصين فى الإيمان بدعوته .. وفى أن يتجنب ما يشعرهم بعدم الرغبة فيهم ، فيقول :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » (١٠) ..

.. وهنا يكشف له : أن الانصراف عنهم يعتبر إساءة يجازى الله عليها . طالما لا يسئل أى من الطرفين عن حساب الآخر ، وعما يرتكبه من ذنوب وآثام ، وطالما : أنه عليه السلام قد قبل من الله مباشرة : التكليف بالدعوة .. وهم قد قبلوا الإيمان بها .

ويتجلى عتاب الرسول عليه السلام : على تأثره كإنسان يعيش فى مجتمع فيه المستكبرون والمستضعفون .. وفيه أصحاب الزعامة ، والضعفاء والأرقاء : بوجاهة الوجهاء وزعامتهم : فيما يقوله سبحانه لرسوله فى سورة الإسراء :

« وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذن لاتخذوك خليلا . ولولا ان ثبتناك (أى بالإيمان) **لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا »** (أى تتأثر بهم فيما كانوا يدعونك إليه ، على نحو ما يقوله تعالى فى سورة يونس : **« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا** (وهم هؤلاء المكيون الماديون) **ائت بقرآن غير هذا او بدله » (١١)** (أى بحيث يكون أقرب إلى تأييد اتجاهنا فى الحياة ، وليس إلى نقده) **اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (١٢)**

وعلى نحو ما سجل القرآن عتابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن ميله فى تأثره بزعامة قومه ووجاهتهم .. يسجل

---

(١٠) الأنعام : ٥٢ **(١١) يونس : ١٥**
(١٢) الاسراء : ٧٣ — ٧٥

كذلك عتابه له على ميـله كرسـول لأقربائه واسـتغفاره الله لهـم ، رغ ١ أنه يعـلم علماً مؤكداً بما ينتهى إليه مصـيرهم ، فى قـول الله تعـالى : **« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم »** (١٣) .. وقد سجل عتابه له بعنوان أنه نبى .. وللتابعين له بعنوان : أنهم مؤمنون . لأن وصـفه بالنبـوة .. ووصفهم بالإيمان : هو مصدر المؤاخذة له ولهم ، فى توجههم إلى الله فى أن يغفر لأقربائهم فى الدم والقبيلة : شركهم وصدهم عن سبيل الله ، طالما هو عليه السلام ملتزم بدعوته .. وهم يلتزمون بإيمانهم وقد انتقلوا جميعاً من تقييم العلاقات بين الأفراد على أساس الروابط المادية القبلية .. إلى الأسس المشتركة للإيمان وللأخوة البشرية ، وهى أسس تصور القيم العليا فى حيـاة الإنسان .

أما باعتبار أنه إنسان غير نبى .. وأنهم أناسى غـير مؤمنين : فليس فى ميلهم إلى أقربائهم بطلب الغفران لهم عن جرائمهم : سبب للمؤاخذة والعتاب .



.. وكذلك يسجل القرآن عتابه على ما يأخذه على قيادته عليه السلام : فى سياسة الحرب مع الأعداء . فيعتب عليه تبنيه لرأى أبى بكر رضى الله عنه فى أسرى « بدر » . وهو أن يفدى الأسرى مقابل مال ، يحتاجه المؤمنون إذ ذاك ، بدلا من قتلهم ، تقليلا لعـدد المشركين فى الجمـلة من جانب ، وإرهاباً لهم فى لقاء المؤمنين من جديد فى موقعة أخرى من جانب آخر ، كما كان يرى عمر رضى الله عنه هذا الرأى . ويقول الله جل شأنه :

« ما كان لنبى أن يكـون له أسرى حتى يثخـن فى الأرض » (أى حتى تثبت قدماه على الأرض بقوة المدد .. وقوة الإيمان .. وقـوة العدة .. وقوة السيطرة والسيادة) .

« تريدون عرض الدنيا (أى إنكم برأى الإفداء تطلبون الدنيا ، فيما لها من عرض المال) .

---

(١٣) التوبة : ١١٣

« **والله يريد الآخــرة** » (أى والله يريد لكم جزاء الآخرة ونعيمها .. وليس عرضا من أعراض الدنيا . وأنتم لا تحصلون على جزاء الآخرة إلا بتحمل المشقة فى سـبيل الإيمان بالله والدعـوة إليه . وبإقراركم للفـدية عدلتم ـ وأنت نبى ـ عما يريده الله لكم .. إلى ما يريده المفتتنون بالدنيا ، والواقعون تحت تأثير إغرائها) .

« **والله عزيز حكيم** » (ولكن أعراض الدنيا لا توصلكم إلى العـزة والسيادة ـ ولا إلى الحكمة فى التصرف . وعبادة الله عبـادة حقة هى : التقرب إليه بمحاكاة صـفات ذاته . وقـد وصف ذاته ـ من بين صـفات عديدة ـ بأنه عزيز لا يقهر .. وبأنه حكيم لا يخطىء فى حكمه وتدبيره) .

« **لولا كتاب من الله سبق** (أى لولا قضـاء من الله قد اتخذ بشـأنك وشـأن الموافقين معك على الإفـداء ، وهـو العفـو عنـكم جميعـاً) **لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** » (١٤) .. (أى لنالكم بسبب هذا الرأى عذاب عظيم فى الدنيا أولا ، وهو استمرار تلقيـكم الإهانة من الأعـداء الطاغين .. واستمرار تلقيكم سخريتهم واستهزاءهم بدين الله ، وبالدعوة إليه ، وبكم كمستضعفين من عامة الناس) .

.. ويعتب عليه أيضاً : تصرفه عليه السلام فى موقعة « أحد » إذ أرسل الطلائع فى جيش المؤمنين يستطلعون أوضاع الأعداء المشركين . وقبل أن تعود هذه الطلائع غنم المؤمنون بعض ما للأعداء من مال ومتاع ، فقسمه عليه السلام على الحاضرين فى ميدان القتال ، دون أن يحجز للطلائع نصيبهم . ويسمى القرآن ـ فى عتبه على الرسول عليه السلام ـ هذا التصرف منه : غلولا ، تغليظاً له . إذ الغلول فى مدلوله الوصفى : هو الخيـانة فى غنائم الحرب . فيقول تعالى :

« **وما كان لنبى ان يغل** » (أى يتصرف فى غنيمة الحرب تصرفاً يشـبه الغـلول) **ومن يغلل يات بما غل يوم القيـامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** » (١٥) ..

---

(١٤) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨

(١٥) آل عمران : ١٦١

كما يعتب عليه أنه أذن لبعض المنافقين فى التخلف عن الخروج إلى ميدان القتال مع بقية المحاربين . وهذا الإذن كان إبقاء على ستر نفاقهم . ولكن لمصلحة الأمة : فى داخلها .. وفى ميدان القتال مع أعدائها : يجب أن يعرى المنافقون حتى يظهر أمرهم واضحاً ، فلا يصدقون بعد ذلك فيما يقولون .. ولا يعتمد عليهم فى معرفة أسرار المؤمنين ، أو فى مباشرتهم أمراً لمصلحتهم . وقد جاء ذلك فى قول القرآن الكريم ، فى سورة التوبة :

« **عفا الله عنك** (أى ما قمت به كان غير مقبول عند الله ، فعفا عنك الآن) . **لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا** (أى فى إيمانهم) **وتعلم الكاذبين** . (أى فيه أيضاً . وهم المنافقون) .

« **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم** ، (أى ليسوا هم فى حاجة إلى أن يأخذوا الإذن منك فى التوجه إلى ميدان القتال .. أو إلى إنفاق الأموال فى سبيل الله . فهم يعبرون عن إيمانهم الصادق بالجهاد بالأموال والأنفس) **والله عليم بالمتقين** .

« **انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم** (أى خروجهم إلى ميدان القتال) **فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** .

« **لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا** (أى ارتباكا فى صفوفكم) . **ولأوضعوا خلالكم** (وليبثوا بينكم بالتشكيك فى النصر ، وبنشر دواعى الهزيمة) .

« **يبغونكم الفتنة** (أى يقصدون إلى اضطرابكم) **وفيكم سماعون لهم** ، (أى وفيكم من يسمع لهم ويطيع قولهم . وعندئذ سيكون هؤلاء المنافقين عامل هزيمة لا محالة) **والله عليم بالظالمين** » (١٦) .. (وما يقصه الله عليك أيها الرسول — صلوات الله عليه — : يقصه عن علم بأولئكم الماديين المشركين الذين يعيثون فى الأرض ظلماً وفساداً . فهذا من طبعهم .. وما يتوقع منهم لكم كمؤمنين مخلصين : هو ما يتوقع دائماً من العداوة للإيمان ، ومن أصحابها فى أى وقت) .

---

(١٦) التوبة : ٤٣ — ٤٧ .

.. وما يعلل له القرآن عتابه هنا على الرسول عليه السلام فى إذنه لبعض المنافقين بالقعود مع القاعدين وعدم الخروج إلى ميدان القتال : يعتبر من أهم المبادىء فى سياسة الدولة والجماعة . ونظير المنافقين على عهد الرسول عليه السلام : من يحصلون اليوم من أعداء الأمة الإسلامية على جنسية مجتمع إسلامى من مجتمعاتها .. أو أولئكم الذين يدخلون فى الحاضر فى الإسلام من هؤلاء الأعداء ، تخفيا وراء الإسلام . فهم بين المؤمنين دعاة هزيمة .. ودعاة تشكيك فى إيمانهم وفى قوتهم وفى مصيرهم .. ودعاة تخريب ، وأعوان للأعداء فى الخارج ، وعلى أمن البلاد فى الداخل .



.. ويسجل القرآن ــ بجانب تسجيل أنواع العتاب ــ أموراً من خصوصيات الرسول عليه السلام فى أسرته .. وفى حياته . الأمر الذى يدل بالتالى قطعاً على أن القرآن لم يكن حديثاً ذاتياً للرسول ولا مؤلفاً له .. وبالتالى يدل على تجرد القرآن من العوامل الإنسانية الشخصية ، التى يعتبر التجرد منها فوق مستوى البشر .

فهو يسجل :

١ ــ قصة زواجه بزينب بنت جحش .

٢ ــ وشائعة الإفك ، مع عائشة رضى الله عنها .

٣ ــ والخواطر النفسية التى كانت تراود بعض الزوجات للرسول عليه السلام .

.. فعن قصة زينب بنت جحش يقول الله تعالى :

« **واذ تقول للذى انعم الله عليه** (أى بالإيمان) **وأنعمت عليه** (أى بالعتق وفك الرقبة . وهو زيد بن حارثة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم) :

« **امسك عليك زوجك** (وهى زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله) ، **واتق الله** (أى فلا تفارقها)

« **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** (وهو أمره تعالى له باتخاذها زوجا) .

« **وتخشى النـــاس** (أى فى أن لا يكـــون ظاهـــرك تعبيراً عن باطنك . إذ فى الوقت الذى تطلب فيـــه من زيد أن يمسكها فلا يفارقها .. تخاف من اتهـــام النـــاس لك بالتعلق بهـــا) **والله احق ان تخشاه** ، (وذلك بأن تكون صريحاً وواضحاً) .

« **فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم** (وقـــد كان زيـــد متبنى للرســـول صلى الله عليـــه وسلم ، حتى يقـــول ابن عمر : إن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ما كنا ندعـــوه إلا : زيد بن محمـــد ، حتى نزل القـــرآن : « **ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله** » (١٧) .. **اذا قضوا منهن وطراً ، وكان امر الله مفعولا** . (ولما تزوجها الرسول قال القائلون فى ذلك الوقت : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله :« **ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما** » (١٨) ..) ..

« **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً** » (١٩) ..

وقد كان تعليق عائشة رضى الله عنها على نزول الوحى بهذه القصة ، أن قالت : « لو كان النبى صلى الله عليه وسلم كاتما شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية » . والقرآن وإن كان وضع تقييمه لهذا الأمر الخاص فى حياة الرسول بقوله : « **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل** » (٢٠) .. إلا أن هذا الأمر الخاص قد يستغل ممن يبيتون السوء لرسول الله ولدعوته : كشف القرآن له ، وقد يذهبون فى تأويل الدوافع إليه : إلى أسباب تبعد عن مستوى الإنسانية .. فضلا عن بعدها عن أخلاقية الدعوة التى يدعو إليها .

.. ويسجل أيضاً واقعة الإفك ، فيقول الله تعالى :

« **ان الذين جاءوا بالافك** (وهو اتهام عائشة رضى الله عنها فى عرضها) :

---

(١٧) الأحزاب : ٥
(١٨) الأحزاب : ٤٠
(١٩) الأحزاب : ٣٧ ، ٣٨
(٢٠) الأحزاب : ٣٨

عصبة منكم ، (أى مجموعة منكم) **لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم** (أى ممن شارك فيه) **ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم** (أى ذلك الذى باشر النصيب الأوفر فى اختلاقه وترويجه) **له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » (٢١) ..**

.. فهذه الآيات تشير لحديث الإفك فى حق السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد وقع فى السنة الخامسة بعد الهجرة ، إثر العودة من غزوة بنى المصطلق . فعندما تقرر الأمر بالرحيل لجيش المسلمين ، لم تكن السيدة عائشة فى هودجها ، وقد كانت فى صحبة الرسول عليه السلام فى هذه الغزوة بعد أن اقترع بين زوجاته . ولم تكن موجودة عند الرحيل . لأنها ذهبت لتبحث عن عقد لها كانت نزعته . ولم يلاحظ عند الرحيل : أنها لم تكن بالهودج ، إذ كان مغلقا وكما ذكرت هى : كانت خفيفة الجسم . فخفة جسمها لا تجعل المساعد لها عند قيام الجمل يشعر بغيبتها إن هى تخلفت . حتى وصلت القافلة إلى الموقف التالى بالطريق . وفى الأثناء وجدت عائشة أن القافلة رحلت فجلست لتستريح ، على أمل أن يعود أحد ليأخذها ، ممن يكلف بتتبع القافلة ليجمع المتروك من متاعها . حتى جاء الليل ونامت . وفى غداة اليوم التالى وجدها أحد المهاجرين ، وهو صفوان بن المعطل . وقد كان هو المكلف بتتبع سير القافلة حتى إذا وجد شيئا ترك ، نقله معه ، فنزل من على بعيره وأركبها عليه وسار على قدميه يقوده بها .

وهذا الحادث أعطى فرصة للأعداء من المنافقين للتقول فى شأن عائشة بغير حق . ويقال : إنه كان على رأس المتقولين عبد الله بن أُبَىّ . إذ عندما مر صفوان بهودج عائشة : عليه ، وهو فى جماعة من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة . فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل ، حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

(٢١) النور : ١١ — ١٦

والآيات القرآنية هنا تعرض لهذا الحادث على أنه ليس شراً لمن أسيىء إليهم ، وهم الرسول عليه السلام ... وأبو بكر ... وعائشة .. وصفوان . بل ترى فيه الخير : **« لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم »** .. لأنه اتضح أولا : أنه افتراء مبالغ فيه . كما كشف عن أعداء مستترين وراء عنوان الإيمان ، يضمرون عداءهم للدعوة .. ولصاحبها عليه السلام .

وفى سبيل كشف الافتراء .. والعداوة المقنعة بالإيمان ، أوحى الله بقوله : **« لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين .** (أى كان ينبغى أن يكون موقفهم من شائعة الإفك هو هذا الموقف) **لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون »** .. والمعنى : ألم يكن الأولى بكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تكون لديكم فى أنفسكم صورة خيرة عن علاقات بعضكم ببعض ، تدفع من أول الأمر : هذا الكذب ، وتعلنون على رؤوس الأشهاد : أنه افتراء واضح ؟ وألم يكن لديكم علم بأن مثل هذا الأمر ـ وهو القذف والاتهام فى العرض ـ لا يثبت إلا بأربعة شهداء ؟ . فإذ لم يكن هناك شهداء أربعة فهو كذب فى ذاته ، يحد قائله ومروجه ؟ .

ولكن مع ذلك استغل هذا الحادث أسوأ استغلال ، حتى ضاق صدر الرسول عليه السلام بعائشة رضى الله عنها .. وفترت العلاقة بينهما ، مدة من الزمن ، إلى أن كشف الوحى حقيقة الأمر .

ولو تدخل العامل الشخصى فى كتابة القرآن ما ترك إنسان ما لقلبه أن يكتب عن علاقته بمن هى أحب إليه من زوجاته ، مثل ما سجل القرآن هنا فى وحيه للرسول عليه السلام فى قصة الإفك واتهام عائشة رضى الله عنها ، فى عرضها .

كما يسجل القرآن ـ بجانب قصة زينب بنت جحش ، وقصة الإفك بالنسبة لعائشة ، مما يدخل فى نطاق خصوصيات الأسرة ـ ما كان يراود بعض زوجاته من الرغبة فى الاستمتاع بمتع الدنيا .. حتى جاء الوحي يطلب للرسول عليه السلام أن يخير زوجاته : بين البقاء معه وتحمل قسوة الحياة

فى سبيل الدعوة .. أو المفارقة وعدم الالتـزام بوضـعها القائم . وقد جاء ذلك فى قول الله تعالى : « **يا أيهـــا النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحيـــاة الدنيـــا وزينتها** (كما يحكى : أن بعضهن أردن الثيـاب .. وزيادة النفقة . وضـاق بما طلبن : صـدر رسـول الله عليـه السـلام) **فتعالين أمتعكن** (أى أعطيكن متعـه الطـلاق) **وأسرحكن سراحاً جميلا** . (أى أطلقكن فى إحسان وتهذيب) .

« **وان كنتن تردن الله ورسـوله والدار الآخرة** (أى تردن القيم العليا وتكن فى ذلك قدوة حسـنة ، وتحصـلن فى الآخـرة على جـزاء الله) **فان الله أعد للمحسنات منكن** (وهن اللائى يحسـن بالصـبر فى سـبيل الدعوة ، وبمساعدة الرسول عليه السلام على أدائهـا ، وبمنعهن عنه كل ضيق صدر ، بسبب مشاكل الحياة المادية) **أجراً عظيماً** » (٢٢) ..

والرغبات المادية التى كانت تراود بعض زوجات الرسول عليه السلام : هى رغبات بشرية طبيعية لا يدل كشفها للرأى العام على شىء غير عادى فى خصوصيات أية أسرة ، لو لم يكن ربها .. ولو لم يكن الزوج هو رسول الله ، بهذا العنوان . أما وإنه الرسول عليه السلام فالمفروض أن تأخذ كل زوجة له : نفسها بسلوك ، يعد مثلا طيباً لغيرها من المؤمنات . ولذا جاء إنذار الله لهن قاسياً : فى قوله :

« **يا نساء النبى مـن يات منكن بفاحشـة مبينة يضاعف لهـا العـذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن** (أى تطع) **لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً** » (٢٣) ..

* * *

والآن لدينا دليلان واضحان ـ وهما تسجيل العتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سياسته : فى الدعوة .. وفى سـياسة الحـرب مع الأعداء من جانب . والكشف عن بعض الأسرار الخاصة فى أسرته عليـه

---

(٢٢) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ (٢٣) الأحزاب : ٣٠ ، ٣١

السلام ، من جانب آخر ـ هذان الدليلان يدلان : على أن القرآن تجرد عن كل البواعث والميول الشخصية .. وأنه موضوعى ، بقدر ما يبعد عن الأمور الذاتية . وتجرد أى عمل عن البواعث والميول الشخصية لا يدل فقط على موضوعيته . وإنما يدل مباشرة على تفوقه .. إلى درجة الإعجاز .. وبالتالى على صلاحيته التامة لبناء الحضارة الإنسانية .

* * *

● **موضوعية المبادىء وتجردها :**

فإذا أضيف إلى هذين الدليلين .. أو إلى هاتين الظاهرتين : موضوعية مبادئه ، وتجردها تجردا تاما عن الميول والبواعث الشخصية .. فإن إعجاز القرآن يكون عندئذ حقيقة ملموسة ، لا ينكرها إلا من لا يفرق بين الموضوعى .. والشخصى : فى التفكير .. وفى العمل الإرادى .. وفى تقييم الجمال فى الحياة . ومن هذه المبادىء الموضوعية :

أولا : إن دعوة القرآن تؤمن برسالة الحضارة السابقة ، قبل عهد الرسول عليه السلام . يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » (٢٤) ..

.. فسوى فى الإيمان برسول الله محمد عليه السلام الآن ، وبالرسل السابقين عليه .. وبالكتاب الذى هو القرآن ، والموحى به إلى رسول الله ، وبالكتاب الآخر السابق عليه فى أى عهد من عهود الرسالة . لأن رسالة الله فى أى عهد تستهدف ما تستهدفه أية رسالة . وهو معاونة الإنسان على الانتقال من مستوى الجاهلية إلى مستوى الحضارة الإنسانية :

« يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم (فى أى عهد) **يقصون عليكم آياتى فمن اتقى** (فمن تجنب انحرافات الجاهلية) وأصلح (بسلوك الهداية الإلهية .. وهى الطريق إلى الحضارة البشرية) **فلا خوف عليهم ولا هم**

---

(٢٤) النساء : ١٣٦

يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ›› (٢٥) ..

وثانياً : إنها تدعو إلى الترابط بين الأفراد على أساس القيم العليا فى حياة الإنسان .. وليس على أساس العرق .. أو القبيلة . يقول الله تعالى :

‹‹ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا › (وحبل الله هو هدايته التى تتمثل فى القيم الإيمانية العليا المستمدة من صفات الله سبحانه وتعالى . والاعتصام بهذه القيم هو الترابط والتماسك على أساس منها) .

‹‹ واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء (وذلك بسبب الترابط على أساس القبيلة والدم فيها . وهو رباط مادى) **فألف بين قلوبكم** (على أساس الإيمان بالله مركز القيم العليا) **فأصبحتم بنعمته اخواناً** (أى فى الإنسانية والحضارة البشرية) .

‹‹ وكنتم (أى على عهد القبلية وتقاليدها ، والتمسك بهذه التقاليد) **على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ›** (فالقبلية كانت مصدر الحروب والخصومات بين القبائل بعضها وبعض . ولكن بفضل الإيمان جاء السلام والصفاء النفسى للعلاقات بين أفرادها) **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ›› (٢٦) ..** (وهداية الناس بآيات الله وكتابه هى اتباع خطوط الحضارة الإنسانية فيه ، والابتعاد عن ضلال الجاهلية) .. وكذلك يقول فى فضل الله على تآلف المؤمنين وترابطهم ، بعد الخصومات التى كانت مستمرة بينهم ، وتطمين الرسول على تماسك المؤمنين فى مواجهة مؤامرة الأعداء وخداعهم :

‹‹ وألف بين قلوبهم › (أى قلوب المؤمنين) **لو انفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ›** (برباط العقيدة والإيمان بدلا من الرباط المادى وهو رباط الدم والقرابة) **انه عزيز حكيم ›› (٢٧) .**

---

(٢٥) الاعراف : ٣٥ : ٣٦
(٢٦) آل عمران : ١٠٣
(٢٧) الأنفال : ٦٣

.. ولا شك أن الدعوة إلى الترابط على أساس الإيمان بالقيم العليا التى تمثل سمو الحياة البشرية : فوق لحمة الأسرة .. والقبيلة .. والشعب : هى دعوة خالصة لوجه الإنسانية ، ومجردة عن كل أثر لأى عامل شخصى .

وثالثاً : إنها تؤثر الاستمرار فى الترابط والبقاء فى دائرته على أساس هذه القيم .. وليس على أساس العصبية الأسرية .. والقبلية .. والشعوبية . يقول القرآن الكريم : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء** (أى أصدقاء يخلص بعضهم لبعض .. ويشير بعضهم على بعض) **ان استحبوا الكفر على الايمان** » (أى إن آثروا البقاء فى الجاهلية .. ولم يرغبوا فى الانتقال من مستواها .. إلى مستوى الحضارة البشرية) **ومن يتولهم منكم** (أى يصادقهم منكم) **فأولئك هم الظالمون** .

« **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم** (والعلاقة بين هؤلاء جميعاً هى علاقة الدم والقرابة الأسرية) **وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله** (أى إن كنتم تؤثرون : العصبية الأسرية .. أو المحافظة على المال ، أو على إنمائه .. أو الرتابة فى المعيشة — وهى جميعها تصور خطوط الجاهلية — على القيم العليا فى الحياة ، التى يمثلها الإيمان بالله ، وبرسوله .. كما يمثلها الجهاد بالمال أو بالنفس فى سبيل هذه القيم ، والتحول إلى مستوى الحضارة البشرية) **فتربصوا حتى يأتى الله بأمره** ، (أى انتظروا حتى يأتى الأجل المحدد لسقوط مجتمعكم ، وقيام مجتمع إنسانى حضارى آخر بدلاً منه) **والله لا يهدى القوم الفاسقين** » (٢٨) .. (وطالما لا يهدى الله أولئكم الذين يخرجون فى وضوح : عن الطريق السوى فى الحياة : فانهم لا يستقرون فى رياسة ولا فى زعامة : « **وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** » (٢٩) .. بل يخلفهم أولئكم الذين يؤمنون بالله وبالقيم العليا فى الحياة) .

.. واستمرار الترابط على أساس من القيم العليا إن كان ظاهرة تدل على التجرد عن العوامل الشخصية .. فإن هذا الترابط على أساس منها أبقى

---

(٢٨) التوبة : ٢٣ ، ٢٤

(٢٩) محمد : ٣٨

وأنقى من الترابط على أساس العصبية .. أو المال ، فالعصبية فى الأولاد . او المال فى جمعه واكتنازه : كلاهما ينطوى على عامل التفرقة ، كما ينطوى على عامل التجميع . يقول الله سبحانه :

« **يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ، وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم . انما أموالكم وأولادكم فتنة** ، (أى مصدر تجربة واختبار) **والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » (٣٠) .. (والمفلحون إذن هم الذين يترابطون على أساس الإيمان بالقيم العليا .. وليس على أساس العصبية .. او المال) .

رابعاً : إنها تدعو إلى توفير الاعتبار الإنسانى ، والكرامة البشرية لكل فرد ، بغض النظر عن : اللون .. والنسب .. والعرق .. والجاه .. والمال : يقول الله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى آن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم** (أى لا يعب بعضكم بعضاً) **ولا تنابزوا بالألقاب** ، (أى لا تداعوا بالألقاب المسيئة التى يحس المدعو بها : بأذى أو شين .. أو ذم له عندما يدعى بها) **بئس الاسم الفسوق بعد الايمان** ، (فالإيمان من شأنه أن يسوى بين المؤمنين فى الاعتبار البشرى . والتداعى بالألقاب المسيئة من شأنه أن يعيد الفجوة فى هذا الاعتبار بينهم . وإذن التنابز بالألقاب : فسق وخروج عن مطلوب الإيمان) **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا** (أى لا تبحثوا عن أخبار بعضكم بعضاً) ، **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ، (والغيبة : أن يقال فى الرجل من خلفه ما فيه من عيب . فإذا قيل من خلفه ما ليس فيه : فهو بهت) **أيحب أحدكم أن يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم** » (٣١) ..

---

(٣٠) التغابن : ١٤ — ١٦

(٣١) الحجرات : ١١ — ١٢

.. ومن مستلزمات توفير الاعتبار البشرى لكل فـرد فى المجتمع : **أن** ينتهى الإنسان فيه :

عن أن يسخر بغيره .. وعن أن يعيبه .. وأن يلقبه بما يكره .. وعن أن يحدد موقفه منه على أساس الظن وحده .. وعن أن يتجسس عليه ، ويبحث ليعرف أسراره .. وأن يقول من خلفه ما فيه من نقص وعيب . لأن كل واحد من ذلك من شأنه : أن يعكر صفو العلاقات الطيبة التى أحدثها الإيمان بالله ، والانتقال المشترك إلى مستوى الحضارة الإنسانية . ويقول الله تعالى أيضاً :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا** (أى حتى تحسوا بالأنس من سكان هذه البيوت وبالترحيب بقبولكم فى منازلهم) **وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيهـا متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (٣٢) ..**

.. وضمن القرآن بذلك : حرمة لسكن الشخص ، بعـد أن أكد حرمة الشخص ذاتها . وهذا .. وذاك مـن عوامل توفير الكـرامة الإنسـانية للشخص فى المجتمع .

خامساً : أنها تدعو إلى التفاضل بين الأفراد على أساس من التمايز بينهم فى مستوى الإنسانية وحده .. وليس على أى أساس مادى آخر ، كالعرق .. أو القبيلة . يقول تعالى :

« **يا أيهـا النـاس انا خلقنـاكم من ذكـر وأنثى وجعلنـاكم شـعوباً وقبائل لتعارفوا** ، (أى إذا كنتم وجدتم جميعـاً من ذكـورة وأنوثة ، وتساويتم فى ذلك .. ثم جعلتم فصائل من شعوب وقبائل ، وارتبطتم برباط الدم والقربى بناء على التناسـل فيـما بينـكم .. فليس مؤدى ذلك : أن تختلفوا .. وتتصارعوا فيما بينكم .. وأن يخاصم بعضكم بعضاً . وإنمـا مؤداه : أن تجتمعوا على رباط آخر ، فوق رباط الدم والقربى . وهو رباط الإيمان بالله ، مركز الحضارة الإنسانية . فإذا انتقلتم عن طريق الهداية ..

---

(٣٢) النور : ٢٧ — ٢٩

إلى المستوى الحضارى فى تفكير الإنسان وسلوكه : ترابطتم على أساس القيم العليا فى حياة الإنسان . والترابط على أساسها : أدوم وأنقى) ؛ « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** ، (ولذا : فالتفاضل بينكم منذ الآن يكون بمقدار المستوى فى تحقيق هذه القيم الذى يبلغه أى واحد منكم . وليس على الأساس المادى السابق من : المال .. والجاه .. والزعامة .. وعصبية الأولاد .. وقرابة الدم فى الحسب والنسب) **ان الله عليم خبير** » (٣٣) .. (والله وحده هو الذى يعلم ما أبقى وأنقى فى حياة الإنسان ، مما هو مشتت ومفرق .. وهو مع علمه التام . الخبير أيضاً بحقائق كل ما يوصى به) .

سادساً : إنها : تبرز المسئولية الفردية . وعدم قبول المسئولية الجماعية :

« **قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل** » (٣٤) ..

.. فأبرز مسئولية الفرد فى إيمانه بالله .. وانتقاله بذلك إلى المستوى الحضارى الإنسانى ، فى التفكير .. وإدراك الجمال فى الحياة والعمل الإرادى . وكذلك أبرز مسئوليته عن حيرته وبقائه فى جاهليته . والرسول المبلغ لوحى الله لا تتجاوز رسالته : تبليغها إلى الأفراد . وبذلك لا يشارك غيره : المسئولية فى أى إتجاه يسلكه ، ويقول كذلك :

« **ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها** (أى إن دعت نفس تحس بثقل حملها من الذنوب : غيرها لتعاونها فيما تحمل فتشاركها بعض ذنوبها) **لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** » (٣٥) .. (فلا تستجاب لما طلبت وتظل هى متحملة وحدها ما ارتكبته من أخطاء وذنوب) .

وكما يقول : « **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه** ، (وهو كتاب عيسى وموسى) **ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن**

---

(٣٣) الحجرات : ١٣
(٣٤) يونس : ١٠٨
(٣٥) فاطر : ١٨

الهدى بعد اذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، (أى كانت محاولاتكم الخبيثة أنتم أيها المستكبرون ، المستمرة بالليل والنهار : هى التى أضلتنا عن الهدى بعد إذ جاءنا القرآن) .

« **وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا** ، (أى جميعاً ما بين مستكبرين .. ومستضعفين) **هل يجزون الا ما كانوا يعملون** » (٣٦) ..

.. ففى هذا الحوار بين الزعماء والرؤساء من جانب .. والتابعين لهم فى المجتمع من جانب آخر : تتجلى المسئولية الفردية .. وأن ليس للإنسان عذر ما فيما يقترفه . وبالأخص فيما يبقيه فى دائرة الجاهلية ، ويحول بينه وبين الانتقال إلى المستوى الحضارى البشرى . وربما كان يفهم .. أو يعد مقبولا فى إطار الاعتذار : قبول المستضعفين فى المجتمع : نصح المستكبرين : أو أمرهم بالانصراف عن هداية الله لأنهم واقعون تحت تأثيرهم . ولكن جعل الأغلال فى أعناق الفريقين كجزاء لهما لم يترك شبهة فى المسئولية الفردية التامة لكل فريق منهما .

سابعاً : إنها : تدعو إلى أن تكون سرية أى اجتماع بين اثنين فأكثر على الخير وحده .. أى على عدم الاعتداء على الأقل على الآخرين ، يقول تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى اليه تحشرون** » (٣٧) ..

.. فينهى عن التآمر وتدبير الاعتداء .. ويأمر بأن تكون سرية أى اجتماع متمحضة للخير والمصلحة العامة . يؤثر السلام والصفاء فى علاقات الأفراد فى المناجاة وأحاديث الناس فى سرية ، على التدبير للهدم : فى « الخلايا .. وتحت الأرض » .

ثامناً : **تدعو إلى أن** تكون الرغبة فى السلام .. مصاحبة للإعداد لرد الاعتداء ، أى لا يكون هناك إعداد لقوة المجتمع ، غير مشفوع هذا الإعداد بإعداد نفسى آخر للسلام . يقول تعالى :

---

(٣٦) سبأ : ٣١ - ٣٣

(٣٧) المجادلة : ٩

« **وأعدوا لهم** (أى للأعداء) **ما استطعتم من قوة** (وهى القوة العددية .. والنوعية) **ومن رباط الخيل** (وهى الحصون والقلاع) **ترهبون به عدو الله وعدوكم** (أى أن هدف هذا الإعداد ليس . الاعتداء .. ولا الفتح والتوسع . وإنما حمل العدو على التفكير والتروى عندما تسول نفسه الاعتداء .. وإنما إرهابه) **وآخرين من دونهم لا تعلمونهم** (أى ومع أعداء الله وأعداء المؤمنين الصرحاء المكشوفين لكم : أعداء آخرون متسترون من ورائهم . وهم معهم بالمشاركة فى إعدادهم وفى دفعهم ضد المؤمنين) **الله يعلمهم** ، (لأنه يعلم الظاهر والباطن .. والصريح والخفى . والمنافقون فى عداد هؤلاء الأعداء المتسترين) .

« **وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون** . (والخطاب للأثرياء فى الأمة للإنفاق على إعدادها فى مواجهة الأعداء ، إعداداً مادياً) .

« **وان جنحوا للسلم فاجنح لها** (وهنا يقرن القرآن حمل المؤمنين على الميل إلى السلام وقبوله ، بطلب الإعداد لأنفسهم لمواجهة عدوان الأعداء ، مما يعبر هذا القرآن على أن الهدف الأصيل للدعوة إلى الإسلام : هو السلام . ولكنه سلام القوى ، وليس سلام الضعيف .. سلام المتيقظ ، وليس سلام الغافل .. سلام من يضحى بمتع الدنيا ليعيش عزيزاً ، وليس سلام من يستذل من أجل الاستمتاع بهذه المتع) **وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم** . (ولكى تشجع الدعوة الإسلامية المؤمنين إلى الميل إلى السلم وإلى قبوله : تطلب إليهم أن يعتمدوا على الله عند قبولهم للسلام ، ويبعدوا عنهم القلق من أجل التفكير فى خداع الأعداء وغدرهم . فالله سميع لكل همسة منهم .. وعليم بمجرى كل أمر يصدر عنهم . وطالما المؤمنون يأخذون أنفسهم بما يدعوهم الله إليه من غير تقصير .. فخداع أعدائهم لا ينال منهم إطلاقا) ..

« **وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** » (٣٨) .. (أى فالله هو المتكفل برد خداع الأعداء وبنصر المؤمنين

---

(٣٨) الأنفال : ٦٠ – ٦٢

عليهم . إذ خديعة الأعداء ستكون مكشوفة للمؤمنين ؛ إذا لم يوالوهم .. وإذا اخذوا منهم حذرهم .. وبقوا فى قوة فى مواجهتهم .. وآثروا ولاء بعضهم لبعض ، على أن يميلوا إليهم . وطالما تكتشف الخديعة فأثرها سلبى) .

تاسعاً : تدعو إلى تكافؤ . إنتاج الإنسان وعمله من أجل الرزق فى الدنيا من جانب .. وعبادته لله من جانب آخر ، يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (٣٩) ..

.. فسوى القرآن فى الأمر هنا : بين وجوب أداء صلاة الجمعة إذا حل وقتها .. ومباشرة السعى بعد الانصراف من أدائها من أجل الرزق فى ضروب الحياة المختلفة : تجارة .. أو زراعة .. أو صناعة .. أو إدارة وإشراف على عمل آخر . كما أوضح أن العبادة والمحافظة عليها مقدمة ضرورية لنجاح الإنسان فى حياته **« واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ..** سواء أكان هذا النجاح فى تحصيل الرزق .. أو فى حسن العلاقة بين إنسان وآخر ، فى مجتمعه .

وهذه المساواة فى الحرص على الأداء : بين العبادة .. والسعى من أجل الرزق : تعطى الدليل على إيجابية الدعوة الإسلامية فى حياة الإنسان .. وعلى أن التوكل على الله الذى يطلب من الإنسان المؤمن بالله : ليس طريقاً سلبياً . أى ليس تواكلا ، أو إغضاء عن العمل . كما تعطى الدليل من جانب آخر على أن المتع المادية ليست أموراً تنبذ إنما هى أهداف تحصل ليستمتع بها الإنسان ، ولكن لا ليسرف فى الاستمتاع بها : **« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » (٤٠) ..**

عاشراً : إنها تدعو إلى أن يكون : العدل .. والشورى .. والاطمئنان إلى عدم اتباع الهوى ، من مقومات الحكم الصالح ، فيقول القرآن الكريم : **« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (٤١) ..** فيأمر بالعدل فى كل جانب من

---

(٣٩) الجمعة : ٩ ، ١٠
(٤٠) الاعراف : ٣١
(٤١) النحل : ٩٠

جوانب الحياة . ثم على وجه الخصوص يأمر بالعدل فى الحكم . فيقول :

« **ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها** (وهى أمانة العمل وأداؤها بالدقة فيه .. وأمانة العهد والوعد ، وأداؤها بالوفاء بأى منها . وأمانة الأسرة وأداؤها بالإحسان فى رعايتها .. وأمانة الرأى وأداؤها بالنصح فيه .. وأمانة السلوك وأداؤها بالاستقامة فيه) **واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل** » (٤٢)

ويأمر بالعدل فى المعاملة فيقول : « **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً الا وسعها** » (٤٣) ..

وبالعدل فى القول ، فيقول : « **واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** » (٤٤)

وبالعدل فى الشهادة ، فيقول : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله** (مقيمين لأوامره ومطيعين لها) **شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ،** (أى لا يحملنكم بغض قوم بسبب كفرهم مثلا على عدم العدل نحوهم فتعتدون عليهم) **اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون** » (٤٥) ..

وبالعدل : بين ما يفعله الإنسان .. وما يتحدث عنه ، فيقول :
« **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون • كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون • ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** » (٤٦)
(أى لا يحب الاعوجاج بالتحدث عن فعل كالمشاركة فى القتال مثلا .. وعدم وقوع هذا الفعل) .

وبالعدل فى العهود ، والعقود ، بالوفاء بها : « **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم** » (٤٧) .. (أى ما يجب أن يطلب فيه الوفاء من العهود هو ذلك النوع منها الذى يستهدف الخير .. والمصلحة العامة .. أو هو عهد الله) .

« **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** » (٤٨) ..

---

(٤٢) النساء : ٥٨
(٤٣) الانعام : ١٥٢
(٤٤) الانعام : ١٥٢
(٤٥) المائدة : ٨
(٤٦) الصف : ٢ — ٤
(٤٧) النحل : ٩١
(٤٨) المائدة : ١

.. أما الشورى فيتحدث عنها القرآن فى صفات المؤمنين ، على أنها جزء لا يتجزأ من قوام حياتهم ، فيقول : **« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم »** (٤٩) .. (وهو أمر الأسرة بين أفرادها .. وأمر الجيران بعضهم مع بعض .. وأمر الناس مع ولاتهم وحكامهم) .

كما يطلب إلى الرسول عليه السلام باعتباره قائداً وحاكماً : أن يشاور من جديد : النفر من المؤمنين الذى كان من أسباب هزيمة المسلمين فى غزوة « أحد » بعد أن يعفو عنهم .. ويستغفر لهم الله ، على ما وقع منهم من خطأ ، فيقول :

« فبما رحمة من الله لنت لهم » (أى لا تقسو عليهم واستمد موقفك هذا إزاءهم من صفة الرحمة التى هى بالغة حد الكمال فى المولى سبحانه) . **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر** (أى فى شأن القتال عند خروجك مرة مقبلة مع المؤمنين جميعاً إلى مواجهة الكفار) **فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين »** (٥٠) ..

.. فمع خطأ هذا النفر فى شأن المؤمنين جميعاً : فإن القرآن يطلب من الرسول عليه السلام من جديد : أن يستطلع رأيه . ولو أن خطأهم كان نقداً ذاتياً لوضح الأمر فى طلب مشاورتهم من جديد . ولكنه خطأ كان يرجع إلى الانصراف عن أهداف الدعوة فى ميدان القتال .. كان يعود إلى مغانم الحياة الدنيا فيه . فطلب استطلاع رأيهم مع ذلك يدل على قيمة الشورى فى حياة الناس وأثرها فى الترابط فى العلاقات بين أفرادهم .

حادى عشر : إنها تستنكر الاحتراف بالقيم العليا :

إذ أخطر شىء على هذه القيم هو الاحتراف .. وجعلها وسيلة ، وليست هدفاً فى ذاته . والاحتراف بها يكون عادة من الداعين لها ، والحاملين لواء نشرها . وهنا يحذر القرآن أن يتحول أمر المؤمنين إلى الاحتراف بهذه

---

(٤٩) الشورى : ٣٨

(٥٠) آل عمران : ١٥٩

القيم ، على نمط ما كان عليه أحبار اليهود .. ورهبان النصارى ، كما جاء فى قول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل** (وذلك عن طريق تدخلهم فى تأويل ما يقع عليه : اسم الحلال .. أو اسم الحرام .. أو عن طريق إخفائهم بعض تعاليم الكتاب .. وإظهار البعض الآخر ، على أن يؤجروا على ما يقولون) **ويصدون عن سبيل الله** » (٥١) .. (واحترافهم بالقيم العليا .. وأكلهم أموال الناس بالباطل عن طريق هذا الاحتراف : هو فى حقيقة أمره : صد ، وإبعاد عن سبيل الله . لأن الاحتراف الآن سبيل معوجة . بينما سبيل الله هى دائما السبيل السوى) .

والقيم العليا التى يتجنب الاحتراف بها ليست فقط هى التى يحملها أصحاب رسالة الدين . بل هى التى يحملها فى الأمة كذلك غيرهم : كالأطباء .. والمعلمين .. والقضاة .. ورجال الإدارة .. الخ .

فالأطباء والمعلمون .. يحملون علم الإنسانية فى تطبيب المرضى .. وتعليم الناشئة . فإن هم استغلوا حاجة المريض إلى الشفاء .. والصبى إلى التعليم ، وجعلوا العلاج والتعليم حرفة للاتجار والإثراء : كانوا كالأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

والقضاة ورجال الإدارة .. يحملون علم العدل وإحقاق الحق فى قضائهم .. وإدارتهم . فإن هم احترفوا بالعدل وقبلوا الرشوة كانوا كذلك كالأحبار والرهبان فى أكل أموال الناس بالباطل .

ورجال الجيش يحملون علم الدفاع عن الأمة وعن قيمها العليا وتثبيت شخصيتها المستقلة . فإن هم أثروا من حرفة الدفاع ولم يتمثل فى نفوسهم الإيمان القوى بالدفاع عما يجب أن يدافعوا عنه .. كانوا كذلك كالأحبار .. والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

وهكذا .. كل من يحمل قيمة عليا فى عمله ونشاطه واحترف بها : فهو آكل لأموال الناس بالباطل .

---

(٥١) التوبة : ٣٤

ثاني عشر : إنها : تدعو إلى الرجوع بالخصومة فى الرأى . إلى المصدر الأصيل للدعوة .. وليس لأقوال بعض المؤمنين فيه . فيقول الله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** (وذلك باتباع كتاب الله .. وقدوة الرسول عليه السلام : قولا .. أو عملا) **وأولى الأمر منكم** ، (إن أدى هؤلاء الأمانة فى ولايتهم للمؤمنين ، وحكموا بين الناس بالعدل ، طبقاً لما فى كتاب الله . وجاء هذا الشرط فى آية سابقة على هذه الآية .. فى قول الله تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » (٥٢)) **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله** (أى إلى كتاب الله) **والرسول** (أى إلى قدوة الرسول عليه السلام) **ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ، (أى إن بقيتم على إيمانكم بالله وبعدكم عن اتجاه المادية . وهو ذلك الاتجاه الذى يقوم على إنكار الإيمان بالله .. وباليوم الآخر ، تحت التأثر بإغراء متع هذه الحياة الدنيا) **ذلك خير وأحسن تأويلا** » (٥٣) (أى والالتجاء فى خصومة الرأى إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام : هو خير حل لمشكلتها بين المؤمنين ، لأنه رجوع إلى مصدر الإيمان نفسه .. ذلك المصدر الذى هو بعيد كل البعد عن الهوى والغرض .. والذى تجرد شأنه تماماً للمصلحة العامة) .

ثالث عشر : إنها تدعو الأمة إلى التدخل بالإصلاح أولا .. ثم بالقتال ثانيا ، إذا اشتبكت طائفة بأخرى فيها : فى خصومة عنيفة أو قتال سافر . والتدخل بالإصلاح يراعى فيه العدل المطلق .. أى تراعى فيه المحافظة على الحقوق والواجبات التى لكل طائفة ، حسبما يقررها القرآن . والتدخل بالقتال يكون ضد الطائفة المعتدية منهما .. إلى أن ترجع عن اعتدائها ، فيصلح بينها وبين الأخرى التى كانت تتقاتل معها . يقول الله تعالى :

« **وان طائفتان من المؤمنين** (أى مجموعتان من المؤمنين) **اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ، (أى فالطريق إلى وقف القتال بينهما هو التدخل بالإصلاح بين الطائفتين . فإن كانت مثلا : طائفة موسرة تشح بالإنفاق مما تملك .. وطائفة أخرى محرومة لا تأخذ حقها من أموال الموسرين : اشتبكتا فى

---

(٥٢) النساء : ٥٨   (٥٣) النساء : ٥٩

قتال بينهما فالحل هو الإصلاح طبقا لما جاء فى القرآن من حمل الموسرين على الإنفاق ، على نحو ما قيل فى صفات المؤمنين فى قول الله تعالى : **« والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » (٥٤)** . وحملهم يكون بالنصح . أو بالقتال . كما صنع أبو بكر رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة . وعلى هذا النحو : الإصلاح ما بين صاحب العمل .. والعامل . فلو اشتبكت طائفة العمال فى خصومة أو فى قتال مع أصحاب العمل : فيجب الإصلاح بين الطائفتين بإعطاء العمال ما لهم من حقوق .. وفرض أداء ما يجب عليهم من واجبات نحو أصحاب العمل . ولو اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى فيجب على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة المعتدية حتى تفىء إلى أمر الله ، ثم يصلح بين الطائفتين) ، **« فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، أن الله يحب المقسطين » (٥٥)** ..

.. وهذا التدخل بالإصلاح أولا .. ثم بالقتال إن كان هناك اعتداء ، يجىء مؤسسا على ما يذكره القرآن بعد ذلك فى قول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٥٦)

.. والأساس الذى يذكره هنا هو أساس « الأخوة » فى الترابط بين المؤمنين جميعاً . ومقتضى هذه الأخوة : أن لا يشجع الاعتداء من فريق على فريق .. وإنما يؤخذ حق المظلوم من الظالم منهما . والمسلمون جميعاً عدا الطائفتين المتنازعتين : ضد الاعتداء .. ومع إنصاف المظلوم من الظالم . وفى مقدمة المسلمين : ولاتهم وحكامهم .

والقرآن لكى يحافظ على هذه « الأخوة » : استرسلت آياته — بعد هذه الآية — فى نهى المؤمنين عن كل ما يمس هذا الأساس ، فى أية صورة . فطلبت توفير الاعتبار البشرى ، كما شرح سابقا .. وتجنب الظن فى المعاملة .. وتجنب التجسس فى معرفة الأخبار .. وتجنب الغيبة . ثم أكدت : أن المستوى فى تخير ذلك كله وفى إتقانه هو وحده معيار المفاضلة بين الأفراد : **« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (٥٧)** ..

---

(٥٤) المعارج : ٢٤ ، ٢٥
(٥٥) الحجرات : ٩
(٥٦) الحجرات : ١٠
(٥٧) الحجرات : ١٣

رابع عشر : إنها تدعو إلى الحفاظ على النفس .. والمال . أى تدعو إلى المحـــافظة على حرمة النفس .. وحرمة المال ، تدعو إلى الأمان : فلا تمس نفس بسوء .. ولا يمس مال باعتـــداء عليـــه .. تدعـــو إلى تجنب جريمتين يترتب على أى منهما : فناء المجتمع :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، (والأساس فى التجارة أن يكون فيها ربح .. أى فيهـــا أكثر من مماثلة القيمة بين الطرفين . واستثناء التجارة هنا من أكل أمـــوال الناس بالباطل ، معناه : جواز الربح : فى تحصيله من البـــائع ، وفى قبـــوله من المشترى . أى شرعية عدم المماثلة تماما بين طرفى العقد . لأن الربح الزائد عن المماثلة هنا هو أجر على عمل فى الواقع . وهو عمـــل التجارة . وهـــذا التحليل للتجارة يعطى من جانب آخر معنى أكل أموال الناس بالباطل . وهو حصول أحد الطرفين على مال من الطرف الآخر ، دون مقابل له : لهـــذا الطرف . فعملية النصب والتحايل .. والرشوة .. والمقامرة .. والغصب .. وما شاكل ذلك : تعد من أكل أموال الناس بالباطل . لأن مفهوم التجارة ، وإن كان العمل الشرعى جزءاً منه .. فإن حرية الطرفين فى التعامل فى عقده : جزء آخر فيه . وهذه الحرية غير متوفرة فى النصب والتحايل ، وفى الرشوة ، والغصب .. كما أن شرعية العمل غير متوفرة فى المقامرة) .

« ولا تقتلوا انفسكم ، (والمراد بها أنفس المؤمنين . والمعنى : أن تقتل نفس نفسا أخرى من بينكم . ولكنه أضاف الأنفس إلى المؤمنين جميعـــاً : ليشير إلى أن فقدان أية نفس بالقتل من بين المؤمنين هو فى حقيقته يخص المؤمنين جميعـــا ، وليس فقط تلك النفس التى وقـــع عليهـــا القتـــل) **ان الله كان بكم رحيما »** (٥٨) .. (أى حين يطلب إليكم تجنب القتل ، بعد أن طلب منكم عدم أكل أموال الناس بالباطل . لأن كلا من الجريمتين يهدد المجتمع بالفناء . إحداهما بفناء النفوس .. والأخرى بفناء من يمســـه إلغاء الوظيفة الاجتماعية للمال . وهى تعلق حق المحرومين فيه) ..

خامس عشر : ترى دعوة القـــرآن : أن المادية هى عـــدو الحضـــارة

---

(٥٨) النساء : ٢٩

الإنسانية ، لأنها تجر الإنسان إلى : الحيوانية .. والعبث .. والفساد فى الحياة البشرية : هى عدو آبدى ودائم للإيمان بالقيم العليا : « **ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه** (أى من القرآن ككتاب يسجل الدعوة إلى الإيمان بالقيم العليا) **حتى تاتيهم الساعة بغتة او يأتيهم عذاب يوم عقيم** » (٥٩) ..

.. والماديون لا يخلصون أبداً لمن يؤمن بالقيم العليا .. وبالتحول إلى المستوى الحضارى البشرى للإنسان .. ولمن يدعو إليه : ومن هنا يجب أن لا يصادقوا :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة** » (٦٠) .. (إذ فى مصادقتهم والتودد إليهم ما يحول دون الاحتياط منهم .فنفوسهم تنطوى على السوء ، كما تنطوى على الأمل فى إبعاد المؤمنين عن إيمانهم) « **ان يثقفوكم** (أى يظفروا بكم) **يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون** » (٦١) ..

.. ومهما كان يرجى من نفع مادى منهم .. فما يحصله المؤمنون من نفع يعود على تماسكهم وترابطهم عند عدم مصادقتهم : أفضل وأعم مما يتصور لدى أولئكم الماديين : « **وان خفتم عيلة** (أى فقرا وحاجة بسبب مقاطعتكم لهم) **فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ، ان الله عليم حكيم** » (٦٢) ..

.. وإذا كان من الحيطة : عدم مصادقة الماديين .. وعدم الدخول معهم فى معاملات اقتصادية .. فالأسلم على اطلاق : مخاصمتهم .. ومقاتلتهم : « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله** » (٦٣) ..

.. والقرآن ـ وهو رسالة السلام ـ إذا كان يطلب من المؤمنين : أن يقاتلوا فى سبيل الاحتفاظ بإيمانهم وبعزتهم : أعداءهم الحقيقيين ، وهم الماديون ، فضلا عن عدم التقرب إليهم وعدم مصادقتهم وعدم انتظار النفع المادى منهم .. إذا كان يطلب القتال معهم : فإنه يطلبه كضرورة تفرضها

---

(٥٩) الحج : ٥٥
(٦٠) الممتحنة : ١
(٦١) الممتحنة : ٢
(٦٢) التوبة : ٢٨
(٦٣) التوبة : ٢٩

الحياة للمؤمنين أنفسهم . فطالما الماديون هم الأعداء الحقيقيون للحضارة الإنسانية التى تمثلها قيم الإيمان بالله ، وهم باقون على قوة لهم .. فالخطر سيلحق المؤمنين : إن اليوم .. أو غدا ، من عداوة هؤلاء .

وهذا على نحو ما كان على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فى الغزوات التى دار فيها القتال . والهدف من القتال يومئذ كان للوقاية ، ولم يكن للتوسع .. كان لحماية المؤمنين : قيم مجتمعهم من أعداء السوء له . وهم المشركون ، أو الماديون الوثنيون فى شبه الجزيرة .

وآية القتال للماديين السابقة نزلت ، بعد أن كانت للمسلمين قوة : نوعية .. وعددية ، يستطيعون أن يواجهوهم بها . فهى من آيات سورة التوبة ، وقد نزلت بعد المائدة . وهذه الأخيرة نزلت فى حجة الوداع بعد فتح مكة . وكان المؤمنون إذ ذاك يمثلون قوة إيمانية .. وعددية مرموقة ، ويخشى منها .

فإذا لم يكن المؤمنون على قوة كافية لمواجهة الماديين بالقتال فى وقت من الأوقات : فالأمر يقف بالمؤمنين عند حد عدم الولاء للماديين . ولهم أن لا يجاهروا بعدم الولاء لهم ، تقية منهم ، كما جاء فى سورة آل عمران :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه (وإعلان تحذير الله للمؤمنين هنا : دليل على خطورة موالاة المؤمنين لأعدائهم ، وبالأخص الماديين منهم : على مجتمعهم .. وأمتهم .. وقيمهم) **والى الله المصير » (٦٤)** ..

.. والقتال ــ وهو سبيل من سبل الوقاية ــ وإن كان مكروها للنفوس ، إلا أنه ينطوى فى حقيقته على خير للبشرية . وهو صيانة الحضارة الإنسانية من الدمار والتخريب الذى تسعى إليه المادية بكل ما تملك من قوة : **« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ،** (كالتخلف عن القتال فى سبيل القيم العليا ، فإنه شر لا يصيب المتخلفين وحدهم ، وإنما البشرية كلها :

---

(٦٤) آل عمران : ٢٨

« **واتقوا فتنة لاتصيبين الذين ظلموا منكم خاصة** » (٦٥) .. (وهى فتنة التخلف عن القتال . والذين ظلموا هم المتخلفون الذين رضوا أن يكونوا مع القواعد من النساء) «**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**» (٦٦) ..

* * *

وهذه النماذج من المبادىء فى القرآن الكريم تصور : « التجرد التام » فى قيمتها .. وفى تحليلها . لأنها ترجع جميعها إلى الاحتفاظ بقيمة الإنسان كفرد .. وإلى احترام حرمته :

١ ــ فالإيمان مثلا برسالة الحضارة البشرية السابقة ، هو استمرار للاعتراف بالقيم العليا التى جاءت بها الرسالة السابقة ، من أجل تقدير الإنسان وصيانة حرمته . وليس انتكاسا .. ولا هدما وتخريبا لأى جانب من جوانب هذه الحضارة .

٢ ــ والترابط بين الأفراد على أساس القيم العليا وحدها فى حياة الإنسان .

٣ ــ وكذا إيثار استمرار الترابط على هذا الأساس .

٤ ــ وتوفير الاعتبار البشرى لكل فرد .

٥ ــ والتفاضل بين الأفراد على أساس التمايز فى المستوى البشرى .

٦ ــ وإبراز المسئولية الفردية ــ دون المسئولية الاجتماعية .

٧ ــ واستهداف الخير وحده من أى اجتماع غير علنى .. كل هذه المبادىء تتصل مباشرة بكرامة الفرد ، والحرص عليها .

وليس أقل من هذه المبادىء وضوحا وتجردا : لاحترام الفرد وحرمته ، ما جاء فى هذه النماذج ، من أن :

٨ ــ رغبة السلام .. تصحب الإعداد لرد الاعتداء فى الأمة .

٩ ــ وتكافؤ السعى والعمل من أجل الرزق .. مع عبادة الله .

---

(٦٥) الأنفال : ٢٥ (٦٦) البقرة : ٢١٦

١٠ ــ والعدل .. والشورى ، من أسس نظام الحكم الإنسانى .

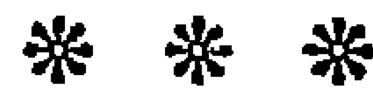
١١ ــ واعتبار الاحتراف بالقيم العليا ، رجوعا بالحضارة .. إلى الجاهلية .

١٢ ــ وتحكيم المصدر الأصيل للمبادىء العامة ، عند التخاصم فى الرأى بين الأفراد .

١٣ ــ وتدخل الأمة بالإصلاح ، عند مواجهة مجموعة فيها بأخرى .

١٤ ــ وصيانة النفوس والأموال من الضياع . بغير سبيل مشروع .

١٥ ــ واعتبار العدو الأول للحضارة الإنسانية هو المادية وتوجيهها .



إن جانب تجرد المبادىء القرآنية من الهوى .. والحزبية .. والعصبية .. ومن أى عامل شخصى آخر : هو جانب رئيسى فى إعجاز القرآن .. وبالتالى : هو آية على صلاحيته للإنسان ولتوجيهه صلاحية تامة ، بغض النظر عن مرور الزمن .. أو اختلاف الشعوب والأمم . وكذلك آية على صلاحيته لتأسيس الحضارة الإنسانية عليه ، تلك الحضارة التى تستهدف الإنسان : فى كرامته .. وفى حرمته فى سكنه .. وفى حرمته فى ماله الخاص .. وفى حرمته فى نفسه ، وأمنه من الاعتداء أو الإرهاب .. وفى حريته فى سعيه وفى عمله .. وفى حقه فى العدل .. وفى إبداء الرأى .

والعمل الإنسانى الذى هو : وليد هذه الحرية .. وآت عن طريق استعمال الحق الإنسانى : هو الصور الواضحة للحضارة الإنسانية .

فالقرآن معجز .. وفى الوقت نفسه مصدر للحضارة البشرية .



الفصل الثانى

بين طبيعة الإنسان وهداية القرآن

● ما تتجه اليه طبيعة الانسان :

إن طبيعة الإنسان ــ وهى طبيعة ثنائية فى وحدة واحدة ــ تتجه بحكم جانب من ثنائيتها ، وهو مصدر الحركة فى الإنسان : إلى اتجاهات ثلاثة ، أو تميل بالحركة فى الإنسان صوب أهداف ثلاثة فى عالمه الذى يعيش فيه . ومصدر الحركة فى الإنسان هو المصدر المؤقت فى الفرد ، ويتمثل فى معدته وما يتصل بها من غرائز .. والمصدر المستمر فيه ، ويتمثل فى نسله والخلف البشرى الذى ينتج عنه ، وما يرتبط به كذلك من دوافع تدفع إلى حركته .

وما يعبر عنه فى طبيعة الإنسان بغريزة حب البقاء الفردى أو النوعى .. أو بالشهوة ، أو ما يتحدث عنه فى بدنه من المعدة والفرج ، أو ما يذكر فيه باسم الطبيعة الحيوانية : كل ذلك يمثل جانبا فى الطبيعة الإنسانية .

أما الجانب الآخر فيمثله القلب والعقل .

والقرآن الكريم يذكر هذه الثنائية فى قول الله تعالى :

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » (أى خلقه كان إبداعا) **انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج**

(أى خلقه الله — بعد آدم ، وحواء — من نطفة مشتركة ، اختلط فيها ما للذكر وما للأنثى . وهذا هو الجانب الحيوانى ، أو الجانب المادى الذى يوحى بالشهوة لديه .. أو هو الجانب الذى ينجذب إلى المادة أو يرغب فى الخلود إلى أدنى) **نبتليه** (أى جعل تكوين أحد جانبيه من هذه النطفة ، وهى مادة : ليختبر بهذا الجانب فى حياته الإنسانية) **فجعلناه سميعاً بصيراً** (أى ومن أجل تحقيق الإختيار جعلناه مدركا ، وذا عقل كذلك .

وهذا هو الجانب الثانى فى تركيبه وفى ثنائيته . والإنسان عندئذ فى طبيعته إذن : مادة ، ومن شأنها أن تميل بالإنسان إلى الرسوب نحو الأدنى .. وعقل ، ومن شأنه أن يسمو بالإنسان فوق الدنو والسقوط والانحدار) .

« **إنا هديناه السبيل** (وهو سبيل الإيمان برسالة الله على يد أى رسول ، وكذلك سبيل العمل بها) **إما شاكراً وإما كفوراً** » (١) (أى ولكن ليس بلازم أن يهتدى بها بالفعل : فإما أن يؤمن الإنسان معبرا عن شكره لله عن هدايته .. وإما أن يظل غير مؤمن بهذه الهداية ومعارضا إياها ، ويستمر حينئذ على ترديده بين خصائص المادة فيه ، وهى التى تدفع نحو السقوط .. وخصائص العقل والحكمة لديه ، وهى التى تحمل على الرفع والسمو) .

.. والاختيار الذى وضع أمامه الإنسان فى حياته ، وعبر عنه القرآن بقوله . « **نبتليه** » هو اختيار هذا التردد والتذبذب : بين السقوط والرفعة ، أو بين الهوى والسمو . والعامل المرجح لسموه ورفعته ، وخروجه من هذا التردد بحكم ازدواج طبيعته : هو عامل الإيمان . فإذا لم يتبع هداية الله : هوى نحو معدته وفرجه .. وأغفل عقله وقلبه .

.. والاتجاهات أو الأهداف الثلاثة التى يميل إليها الإنسان من طبعه ، ويندفع نحوها إذا لم يأخذ بهداية الله ، هى : اتباع الهوى .. والميل إلى الشح .. والركون إلى المحسوس أو المشاهد وحده . وثلاثتها تكون ظواهر اتجاه الجانب المادى فى الإنسان ، أو تحدد مظاهر الأنانية فيه .

* * *

---

(١) الانسان : ١ — ٣

❁ اتباع الهوى :

وجعل القرآن الكريم اتباع الهوى فى الإنسان ــ اهتماما بهذه الظاهرة ــ : أمارة على انفكاكه عن هداية الله ، وتخلفه عن الإيمان به . فيما يذكره قول الله تعالى : « **فان لم يستجيبوا لك** (أى فإن لم يستجيبوا لتحديك إياهم بإتيان كتاب من عند الله هو أهدى من التوراة والقرآن) **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ، (أى فيما يحاجونك فيه . إذ ليست هناك مرحلة وسطى فى سلوك الإنسان وموقفه : فإما اتباع للهوى . كإحدى ظواهر الجانب المادى فى الإنسان .. أو طاعة لهداية الله ، ورفعة وسمو فى إنسانيته) **ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** » (٢) ..

.. والقرآن يضع هذه الظاهرة المادية لأهميتها أمام الرسول عليه السلام : ليعلمه بها : من هم الكافرون حقا .. ومن هم أعداء الله فى مواجهة دعوته ، كى يأخذ حذره منهم من جانب .. وليخفف من أمله فى كسبهم لدعوته من جانب آخر . إذ قبل هذه الآية يحكى القرآن عن عدم جديتهم . واستخفافهم بشأن الدعوة ، فيما يقصه من منطق حالهم ، أو مقالهم ، بقوله :

« **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا** (وهو القرآن) **قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ، قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون . قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين** » (٣) ..

.. فمنطقهم هو منطق التهرب من الإيمان ، تحت تأثير جنوحهم إلى الهوى ، والانحدار إلى ضلاله ومتاهاته :

أولا : عندما يتعرضون الأحداث والمصائب الناشئة عن تصرفاتهم هم : يعلنون استعدادهم للإيمان برسالة الرسول إذا أرسل بها واحد إليهم ، كى يكون ذلك شفاعة عند الله ، فتزول عنهم هذه المصائب .

ثانيا : عندما تأتيهم رسالة الرسول ــ على نحو ما جاء محمد عليه السلام : بالقرآن إليهم ــ يتهربون من الإيمان بها ، بدعوى أنها ليست على

---

(٢) القصص : ٥٠

(٣) القصص : ٤٧ ــ ٤٩

نمط رسالة سبقته ، كرسالة موسى عليه السلام فى كونها غير منجمة ، وغير مصحوبة بأمارة مادية ، كعصا موسى ، مع أن موقفهم من رسالة الرسول السابق ، كان على شاكلة موقفهم من الرسول الذى أتى إليهم ، وهو موقف رفض الرسالة وعدم الإيمان بها ، مدعين : أن كلتا الرسالتين ينطويان على خداع ، أو هما قائمان على خداع : **« قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون »** ..

ثالثا : عندما يتحدون بطلب الإتيان بكتاب هداية ، بعيداً عن الخداع يتبعونه جميعا ــ وفى مقدمتهم الرسول ــ يعجزون عن الإتيان به . وهم إذن ليسوا جادين فى الانتقال من اتباع الهوى إلى الإيمان بهداية الله . بل مازالوا يتبعون أهواءهم . ولذا : كان منطقهم فى عدم الإيمان : هو منطق الضال فى غير اهتداء لسبيل الحكمة .

وشأن المتبع لهواه : أن لا يرضى بحال إطلاقا . بل هو قلق فى حالتى الغنى والفقر .. والصحة والمرض .. والترف والحرمان . وقلقه يعود إلى طلب المزيد ، إن كان لديه ما يرغب فيه ، أو إلى الإلحاح فى تحقيق رغبة له إذا لم تكن قد تحققت . ، ويضرب القرآن المثل للمتبع لهواه : بالكلب الذى يلهث خوفاً ، كلازمة له ، من لوازم طبعه الكلابى ، سواء فى حال ما إذا اضطهد .. أو فى حال عدم اضطهاده . فيقول تعالى :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا (وآيات الله هى كتاب هدايته على يد رسول من رسله) **فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .** (وليس من يؤتى كتاب الله ثم ينسلخ منه : شخصا معينا . وإنما هو كل من اتبع هواه ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) .

« ولو شئنا لرفعناه بها (وكان فى مقدور المشيئة الإلهية أن تساعد كل من بلغته رسالة الله على أن يسمو بها ، إن كانت لديه أهلية وصلاحية لقبول الرسالة والإيمان بها) .

« ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، (أى ولكن من انسلخ عن رسالة الله واتبع هواه فغوى : ليست لديه صلاحية لقبولها . إذ أنه أطمأن

حينئذ إلى الدنو ، وركن إلى خصائص المادة فيه ، وهو السقوط إلى مجالى المعدة والفرج . أى إلى مصدرى الشهوة فيه . ومن ثم : يتبع هواه ويطغى فيه ، دون أن يتبع هداية الله . ويصعب عليه آنئذ أن يتحول من حال التبعية لهواه .. إلى حال السيادة والتحكم فيه) .

((فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون)) (٤) ..

.. وإذا كان اتباع هوى النفس أمارة مميزة على عدم الإيمان بهداية الله ، وخاصة من خواص الجانب المادى فى الإنسان .. فإن الانتقال منه إلى اتباع هداية الله هو انتقال من النقيض إلى النقيض ، يتوقف نجاحه على إرادة قوية وجهاد للنفس وهواها . ومن تتوافر لديه هذه الإرادة فإنه سيجد العون من الله فى تحوله من الجانب المادى فى طبيعته إلى الجانب الآخر فيه ، وهو جانب السمو إلى مستوى العقل والحكمة والقلب .

وتعبير القرآن هنا : بالخلود إلى الأرض واتباع الهوى : تعبير قصد منه نفى العزم والإرادة عند من ينسلخ من آيات الله ورسالته ، فلا يؤمن بها . ولذا لا يصلح أن يكون موضعا لعون الله على اجتيازه ذلك الممر الذى يمثل خط النقلة من الكفر .. إلى الإيمان . ومشيئة الله إذن فى شأن الهداية : مرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه نحو الإيمان . على معنى : أن من يفتح قلبه للإيمان بالله : يجد طريقه إليه ميسرا ، بإرادة المولى جل جلاله :

((ومن يؤمن بالله يهد قلبه)) (٥) (أى من يتجه إلى الإيمان بالله : يهد الله قلبه إليه ، ويشرحه له ، وييسر عليه شأنه) .

* * *

● الميل الى الشـح :

.. والظاهرة الثانية من ظواهر الجانب المادى فى الإنسان : ميـله إلى الشح :

---

(٤) الأعراف : ١٧٥ ــ ١٧٧ (٥) التغابن : ١١

« **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذن لأمسكتم خشـية الانفاق ، وكان الانسان قتوراً** » (٦) .. إذ الشح طبع فى النفوس الباقية على أنانيتها : يحمل على المنع ، والقبض على ما للإنسان ـ أيا كان ما يملكه ـ ، بحيث لا يصيب غيره ، وإن كان هذا الغير ذا حاجة إليه . وليس الشح عادة تتكون فى الإنسان .. وبذلك يختلف عن البخل الذى هو الإمساك عن إنفـاق المال : على النفس ، أو على الآخرين : فقد لا يكون البخيل شحيحا بطبعه . وإنما بخله جاء كعادة تكونت فيه لظروف معينة .

وآثار الشح على سلوك الإنسان وموقفه فى الحياة : هى آثار سـلبية لا تبلغه إلى هدف إنسانى فى حياته . وينظر القرآن إلى الأموال والأولاد ـ وهى ما يعتز بها الإنسان ، ويحرص عليها شأنا ـ على أنها اختبار ، وفتنة : كأى أمر أو متعة مادية فى حياة الإنسان . وعن طريق الاختبار فيها تتضح مادية الإنسان ، إذا كان شحيح النفس حيالها . وفى الوقت ذاته : يوصـل شح النفس فيها إلى سلبيات ، تعكس قبوله للمذلة فى سبيل الشح كطبـع فيه . وفى مقدمة هذه السلبيات : عدم النجاح فى قيادة نفسه ، أو فى صلاته بغيره . فيقول الله تعالى :

« **انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم** (أى اسلكوا خط الهداية الإلهية ، متجنبين موقف الماديين فى بقائهم فى حيز الأنانية) **واسمعوا** (أى ليكن لديكم وعى لما يوحى به الله إلى رسـوله صلى الله عليه وسلم) **وأطيعوا** (أى ونفذوا ما تسمعون : عملا ، وقولا) **وأنفقـوا** (أى وعلى وجه الخصوص : تطيعون ما يوجبه الله عليـكم فى أموالكم) **خيراً لأنفسكم** ، (أى وما تباشرونه من : وعى لما يوحى .. وطاعة له .. وإنفاق من أموال لكم : هو لمصلحتكم أولا ، وليس لمصلحة صاحب الهداية والرسالة ، لأنه غنى عن العالمين) .

« **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » (٧) .. (والذى ينفق من فضل الله عليه ، حسب ما أوجب الله : يقيم وقاية له فى محيط حياته . تقيه مرض شح النفوس ، كطبع لا يغيره إلا الإيمان بالله ، والطاعة لأوامره

---

(٦) الاسراء : ١٠٠

(٧) التغابن : ١٥ ، ١٦

ونواهيه . ومن جعل بينه وبين هذا المرض الإنسانى وقاية تقيه منه : فإنه يكون قد أعد نفسه بعدة النجاح والفلاح : مع أهواء نفسه وشهواتها .. ومع أحقاد الآخرين وسموم حاجاتهم) .

.. وفى وصف القرآن لموقف الأنصار فى المدينة من توزيع أموال الفىء التى أصابها المؤمنون ـ بعد عودتهم من غزوة الخندق ، أو غزوة الأحزاب ـ من يهود بنى النضير وقريظة بعد حصار دام عدة ليال : يعقب بقول الله تعالى : **« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »** .. إشارة إلى أن الأنصار قد نجحوا فى موقفهم ، بعد أن سادوا على الجانب المادى فى طبائعهم بإيمانهم . ذلك الجانب الذى يعد الشح ظاهرة من ظواهره الرئيسية .

فما أن وصل رسول الله إلى المدينة عائداً من القتال فى غزوة الخندق : حتى جاءه جبريل عليه السلام يحمل إليه أمر الله بالخروج إلى بنى النضير وقريظة . إذ قد انتهز هؤلاء اليهود فرصة غزوة الخندق ونقضوا العهد واتفقوا مع قريش وغطفان على حرب النبى صلى الله عليه وسلم . ففاجأهم عليه السلام بحصار ديارهم ، حتى نزلوا على حكمه وخرجوا عن ديارهم وأموالهم للمؤمنين . وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة الحشر :

« هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر (أى بالجلاء **ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** (وذلك بمفاجأة المؤمنين لهم بالحصار) **وقذف فى قلوبهم الرعب ،** (عن طريق إحكام الحصار حول ديارهم) **يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين** (وكانت نتيجة المفاجأة بحصار ديارهم : أن باشروا هم أنفسهم هدمها ، يأسا من البقاء فيما استوطنوه حتى الآن) **فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار »** (٨) ..

.. وهكذا انتهت أموال اليهود إلى المؤمنين بدون قتال معهم . وتأخذ هذه الأموال عندئذ : اسم الفىء بمعنى العائد . على نحو ما يقول القرآن :

---

(٨) الحشر : ٢ ، ٣ .

« **وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** (أى فما تحملتم فى سبيله مشقة السفر على الخيل أو على ما يركب من الابل . ولكن وصلتم بأقدامكم إلى ديار هؤلاء الأعداء) **ولكن الله يسلط رسله على من يشاء** » (٩) .. (أى ولكن حصول المؤمنين على أموال أعدائهم هنا بغير قتال كان نتيجة لمبدأ عام تتمثل فيه إرادة الله . وهو مبدأ تكليف الرسل بتنفيذ نوع معين من التدابير . على نحو ما كلف الرسول عليه السلام بحصار بنى النضير وقريظة) .

.. وعند توزيع مال الفىء قسم الرسول عليه السلام أموال بنى النضير على المهاجرين . ولم يعط من الأنصار ، إلا ثلاثة نفر محتاجين . وقال عليه السلام للأنصار :

« إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركتموهم فى هذه الأموال ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شىء منها » . فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بهذه الأموال ولا نشاركهم فيها . فنزل قول الله تعالى :

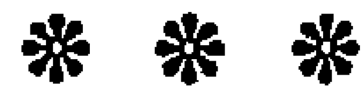
« **والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم** (ويقصد الأنصار . لأنهم سبقوا المهاجرين إلى سكنى دار الهجرة ، وهى يثرب ، وآمنوا بالرسول عليه السلام فى لقاء — من لقاءات الحج — به عليه السلام قبل هجرة المهاجرين إليها ، بعد أن كانوا أصحاب وثنية مادية تلتصق بطباعها : الأنانية والشح) **يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا** (أى مما أعطى لهم من أموال الفىء التى أخذت من يهود بنى النضير وقريظة حول المدينة فنفوس أولئكم الأنصار لم تطمح إلى شىء مما سلم للمهاجرين من هذه الأموال) **ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة** ، (أى ومع كون الأنصار لم يتأثروا بما أعطى للمهاجرين دونهم .. فإنهم كانوا كذلك يؤثرون بما لديهم من مال رغم حاجتهم هم إليها فى تفريج شدائدهم) **ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون** » (١٠) .. (فهؤلاء الأنصار بموقفهم من المهاجرين : فى عدم الحقد عليهم عندما أعطوا

(٩) الحشر : ٦.

(١٠) الحشر : ٩.

من الفيء دونهم .. وفى إيثارهم اياهم بأموالهم مع حاجتهم هم إليها : يضربون المثل فى وقاية النفس من شحها كطبع فيها . ولذلك هم ناجحون . لأنهم أستطاعوا التغلب على شهواتهم ، كما استطاعوا أن ينقذوا إخوانهم من العوز والحاجة) .

.. فوضع الأنصار هنا إذ ينم عن تخلصهم من الشح ، كطبع فى النفوس ، بفضل قوة إيمانهم .. فإنه ينم من جانب آخر كذلك عن : أن هذا الشح يكون شيمة وطبعا للإنسان ، إذا لم ينتقل من أنانية ذاته بفعل الإيمان وقوة تأثيره فى الانتقال .. إلى معنى : المشاركة الإنسانية بين الأفراد جميعا .



● **الركون الى المحسوس :**

والظاهرة الثالثة من ظواهر الجانب المادى فى تكوين الإنسان : ظاهرة الركون إلى المحسوس والمشاهد . فالناس بحكم طبيعتهم قبل الهداية يؤثرون المنافع والمتع الدنيوية على كل قيم ومثل إنسانية .. ويؤثرون الموجود المشاهد من المصالح المادية القائمة على تلك الأخرى التى يوعدون بها فى الدار الآخرة . ولا يطمئنون إلا لما بين أيديهم ، ولا يسعون إلا للحصول عليه ، مهما كانت الطريق ملتوية ، ومهما ترتب على اقتناص المصلحة الشخصية من أضرار ونتائج سيئة للآخرين ، سواء أكانت هذه الأضرار مادية أو معنوية .

ولا يسمعون ولا يعون ما ينبهون إليه من العواقب الوخيمة : على الذات وعلى المجتمع ، بسبب الوقوف عند حد المحس من المتع والمنافع وحدها .. ولا يسمعون ولا يعون ما يذكرون به من أحداث الماضى وقوانين الحياة البشرية ، بسبب ارتكاب السبل التى تعبث بالقيم الإنسانية فى طريق الوصول إلى تحقيق المتعة المادية وحدها .

ومن أجل ذلك ينكرون الحياة الآخرة ، مثل ما جاء فى قوله تعالى :

« وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا (وهى الحياة المشاهدة والمحسة) **على الآخرة** (وهى الحياة المغيبة الموعود

بهـــا) **ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً** ، (ومن أجل أنهم يقفــون بنظرتهم إلى الحياة .. وبسلوكهم فيها .. وبموقفهم من مشاكلها وأحداثها : على المحسوس وحده : يصدون أنفسهم وغيرهم عن طريق الهداية ، وهــو سبيل الله ، كمـا لا يريدون لهـذه الطـريق أن تبقى على اسـتقامتها) **أولئك فى ضـلال بعيد** » (١١) .. فهم ينكرون الحياة الآخرة ومتعها ـــ وقد تكون متعا مادية كذلك تمثل نعيم الله فيها ـــ كما ينكرون الاسـتقامة فى التوجيه .. وفى الفعل .. والتفكير .

وما فى الدنيا من مفاتن ومغريات : له وحده التأثير عليهم :

« **زين للناس** (أى كطبـع من طبائعهـم) **حب الشهوات من النسـاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب** » (١٢) ..

وهؤلاء الذين يركنون إلى المحسوس وحـده ويقعـون تحت إغرائه ومفاتنه .. يسخرون عادة من أولئكم الذين يؤمنون بالقيم الإنسـانية فى حياتهـم ، ويـرون : أن ما فى الدنيـا إن هـو إلا متـاع مؤقت : « **زين للذين كفروا الحياة الدنيا** (أى تغرى الحياة الدنيا بمظاهرها الخلابة ومتعها المحسوسة : أولئك الذين يؤثرون البقاء على طبيعتهـم المادية) **ويسخرون من الذين آمنوا** (أى الذين يؤمنون بالله .. وبالغيب .. وبالدار الآخـرة ونعيمهـا أو عذابهـا) **والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ، (وإن كان المؤمنون فى واقع الأمر أسمى منهم منزلة فى الجزاء عند الله لهم يوم القيـامة) **والله يرزق من يشاء بغير حساب** » (١٣) (أى وأما الرزق فى الدنيـا لأى إنسـان ، فليس له دلالة على سـمو الإنسـان وتفوقه على من هـو قليـل الرزق . ولذا قـد يكون الـكافر صـاحب رزق واسـع فى دنياه ، بينـما المؤمـن لا يصيب لقمـة العيش إلا بمشـقة : « **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** (أى فى الـكفر) **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليهـا**

---

(١١) ابراهيم : ٢ ، ٣
(١٢) آل عمران : ١٤
(١٣) البقرة : ٢١٢

يتكئون . وزخرفاً ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » (١٤) .. وإذن : المال ، والمتع المادية ، ونعيم الحياة ليست طريق التقييم للإنسان . وإنما طريقه : المستوى الإنسانى الذى يبلغه . وكلما اقترب مستوى الإنسان فى صفاته مما لله فى كمالاته .. كلما كان رفيع الدرجة والمنزلة فى الإنسانية . والرزق فى كثرته أو فى ضيقه ليس عامل تقدير على الإطلاق . إنما هو عامل تقدير فى نظر المادى الذى يؤمن بالمحسوس والمشاهد وحده) .

وإيمانهم بالمحسوس وحده يدفعهم إلى أن يقصروا الحياة البشرية على الحياة الدنيا وحدها : « **ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا** (أى والحياة الدنيوية هى حياة مستمرة للبشر . والتغيير فيها هو تغيير أجيال وأفراد . والنوع الإنسانى إذن ينتقل من أفراد كانوا أحياء بالأمس إلى أفراد آخرين خلقوا أحياء اليوم .. وهكذا : بدون انقطاع) **وما نحن بمبعوثين »** (١٥) .. (ولذا ليس هناك بعث .. أى ليست هناك حياة أخرى مغايرة للحياة التى عاشها الإنسان ويعيشها فى دنياه .. هى حياة واحدة ، والسعيد برزقه سعيد حقاً ، والشقى بحرمانه من تلك المتع المحسوسة شقى حقاً . ولا تعويض لمحروم ، ولا عقاب لمترف فاسد على فساده بسبب ترفه) .



.. والجانب المادى فى الانسان هو اذن جانب الميل فيه إلى :

ــ اتباع الهوى والشهوة ، والوقوف بالسعى عند متطلبات : المعدة . والفرج .

ــ وإلى الإمساك والشح ، عن الذات وعن الآخرين .

ــ وإلى الركون إلى المحسوس والمشاهد ، فى المتعة .. والمنطق .. والتصرف .

وإشارة القرآن فى خلق الإنسان إلى : أنه من طين .. ثم من ماء مهين ،

---

(١٤) الزخرف : ٣٣ ــ ٣٥ (١٥) المؤمنون : ٣٧

هو إشارة إلى هذا الجانب المادى فيه ، الذى تعرف معالمه بهذه الميول الثلاثة فيه .

كما أن إشارته فى خلق الإنسان إلى : أنه صاحب سمع وبصر « **فجعلناه سميعاً بصيراً** » (١٦) .. أو إلى أنه صور بعد أن خلق « **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** » (١٧) ..أو إلى أنه ذو لباس يوارى سوأته ، وذو ريش يتزين به « **قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً** » (١٨) .. هو إشارة كذلك إلى جانب العقل والحكمة فيه .

وقد جمع القرآن الأمرين معاً فى سورة السجدة ، فى قول الله تعالى :

« **الذى أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .** (والطين .. والماء المهين كلاهما يمثل التطور فى الجانب المادى لخلق الإنسان) **ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ،** (والتسوية .. والنفخ فيه من روح الله مع السمع والبصر والفؤاد : تمثل جميعها الجانب العقلى أو الروحى .. أو اللامادى فى الإنسان) **قليلا ما تشكرون** » (١٩) .. (أى قلما تعبرون عن شكركم بالإيمان به على حسن خلق الله لكم) .

جانبان متقابلان فى الإنسان : جانب يشده إلى الدنو ، ويتركز فى حب الذات أو فى الأنانية .. وآخر يحاول السمو به عن الدنايا ، وتوطينه فى محيط القيم العليا للإنسان . وهى قيم التعاون .. والمشاركة .. والمودة .. والأخوة . والإنسان بذلك ثنائى ، وإن كان فى إطار الوحدة الواحدة ، وهى الوحدة الإنسانية . والإنسان بذلك أيضاً فى صراع نفسى وداخلى ، وإن بدا الانسجام على ظاهره ، كوحدة واحدة .

هناك إذن من بين البشر نفس أو ذات أمارة بالسوء .. وهناك كذلك نفس أخرى أو ذات لوامة ، أى تلوم نفسها على عدم الاستزادة من فعل الخير . رغم أن كل نفس أودع فيها العقل للتمييز بين الفجور والتقوى ..

---

(١٦) الانسان : ٢
(١٧) الأعراف : ١١
(١٨) الأعراف : ٢٦
(١٩) السجدة : ٧ ـ ٩

وبين القبيح والحسن « **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** » (٢٠) (أى أودع فيها الطاقة على التمييز بين المتناقضين) .

والتركيب الثنائى فى الإنسان قصد به إذن : أن يهتدى الإنسان بعقله ، ويتغلب عن طريقه على ميوله نحو المادى فى حياته وحده ، وبالأخص تلك الميول التى تمثل جانبه المادى . وهى : الميل إلى اتبـاع الهـوى .. وإلى الشح .. وإلى الركون إلى المحسوس . ولكن الشد .. والجذب بين هذين الجانبين فيه : ينتهى فى نهاية المطاف إلى سيطرة الجانب المادى على الجانب العقلى والروحى فيه ، إذا لم يحزم الإنسان أمره باتباع طريق الإيمان بالله : « **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهـم عـن ذكرهم معرضـون** » (٢١) .. « **قـد أفلح من زكاها .** (أى نمـاها وطهـرها من العبث والفجـور عن طـريق الإيمـان) **وقد خاب من دساها** » (٢٢) .. (أى أنقصها باتباع الشهوة والهوى) .

ومن أجل هذه الثنائية فى الإنسان يتنوع الناس فى المجتمعات والأمم إلى نوعين : نوع يجنح إلى السوء والشر ، وهو شياطين الإنس والجن .. ونوع آخر يترفع عن السوء والشر ، ويسلك طريق الله فى علاقات النـاس بعضهم ببعض ، وهو أولياء الله ، أو عباد الرحمن :

« **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (٢٣) ..

« **وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى** » (٢٤) .. (بالإيمان والهداية ، فينتقل من النوع الشرير .. إلى الآخر الخير) .

.. وكل نوع من هذين النوعين ليس مكرهاً على السلوك المعين الخاص به . بل هو مريد ومختار لطريقه فى الحياة : إن فى الجانب المادى ، واتباع المادية فى حياته .. وإن فى الجانب العقلى أو الروحى ، واتباع هداية الله فى منهـج الحيـاة الذى ينتهجـه . وترتبط بإرادة الإنسـان لأى من هذين الاتجاهين : إرادة الله ومشيئته فى التوجيه :

---

(٢٠) الشمس : ٧ ، ٨
(٢١) المؤمنون : ٧١
(٢٢) الشمس : ٩ ، ١٠
(٢٣) الفرقان : ٦٧
(٢٤) يوسف : ٥٣

« **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** » (٢٥) .. وقضاء الله بأن يملأ جهنم من القوى المعهودة ، وهى الناس ، والقوى الأخرى غير المعهودة ، وهى الجِنّة : هو قضاء يترتب على ثنائية الإنسان وتنوعه فى التوجيه إلى مؤمن .. أو كافر .. وإلى مادى ، أو روحى .. وإلى محسن ، أو مسىء .. إلى متبع الهوى والشيطان ، ومتبع الهدى ورسالة الله .

.. وظهر انقسام الناس وتنوعهم إلى هذين النوعين بعد أن أرسل الله برسالته إليهم :

« **كان الناس أمة واحدة** (وهم نواة البشرية الممثلة فى آدم وحواء) **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** » (٢٦) ..

* * *

● ما تدعو اليه هداية الله :

وما تدعو إليه هداية الله : هو عدم الطغيان بالجانب المادى وبالمتع المادية فى الحياة ، وليس الحرمان من هذه المتع أو اعتزال الحياة الدنيا كلية :

« **كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى** » (٢٧) .. (أى سقط فى هاوية الدنايا والمهالك) .

.. وما تدعو إليه هداية الله ، هو ما يدعو إليه العقل الإنسانى عند استقلاله وعدم تبعيته للهوى . أى لو قدر للعقل الإنسانى أن يتجرد عن هذه التبعية لكان منطقه هو منطق الهداية الإلهية . ولكنه لا يستطيع أن يتجرد إطاقا عن هذه التبعية . والتجربة التى مر بها آدم وحواء — وهى التجربة فى طاعة الله عندما نهاهما عن الاقتراب من إحدى

---

(٢٥) السجدة : ١٣ (٢٦) البقرة : ٢١٣
(٢٧) طه : ٨١

أشـــجار الجنـــة : تثبت أن العقـــل الإنســـانى لا يقـــدر وحـــده على أن يدرك طـــريق الســـلام والأمان للذات من : الزلل والأخطـــــار : **« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » (٢٨) .. « ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهـــم ما كانوا به يستهزئون » (٢٩) ..**

.. فقد جاء فى سورة الأعراف ــ تعبيراً عن الأمر بهذه التجربة ــ قول الله تعالى :

« ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » (٣٠) ..

.. ولكن الجانب المادى فيهما ــ وهو الميل إلى اتباع الهـــوى ــ لم تمكنهما من سلوك طريق الهداية الإلهية ، بطاعة ما أمر الله به ، وما نهى عنه فى هذه التجربة . وجاء التعبير عن عدم طاعتهما ، فى قول الله تعالى فى السورة نفسها :

« فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما (أى بدا لهما نقصهما ، وهو عدم بلوغ المستوى الذى كان ينتظر لهما ، بسبب تصوير الله للإنســـان ، بعد خلقه كما جاء فى قوله : **« ولقد خلقناكم ثم صورناكم** (وبذلك أصبح الإنسان بالتصوير فى طبيعته الثنائية يتميز عن الملك فى طبيعته المفـــردة ، وأمر الملك لهـــذا بالسجود لآدم) **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » (٣١) ..** (وهذا المستوى الذى لم يصله آدم وحواء فى هذه التجربة هو مســـتوى الاســـتقلال فى تقـــدير الأشـــياء وفى طاعـــة الله) **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » (٣٢)** . (أى وأخذا من شدة الحيرة وغلبة الحياء عليهـــما بعد إكرام الله لهما بالعقل وتفضيلهما على الملائكة .. يحاولان التستر على نقصهما فى التبعية لهواهما بما لا يسترهما فى واقع الأمر) . .ولم يجـــدا أمامهما آنئذ فى مواجهة الله عز وجل إلا أن يعترفا بخطئهـــما ويطلبا المغفرة

---

(٢٨) طه : ١١٥

(٢٩) الأحقاف : ٢٦

(٣٠) الأعراف : ١٩

(٣١) الأعراف : ١١

(٣٢) الأعراف : ٢٢

والرحمـة : **« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »** (٣٣)

.. وقد استجاب الله سبحانه لما تضرعا إليه بالغفران ، فغفر لهما هـذه الخطيئة . ولكن أنزلهما من الجنة ، ووضع نسلهما من بنى الإنسان فى الدنيا بعدهما : موضع التجربة فى الطاعة لله .. إلى يوم أن يشاء الله إنهاء هذه الدنيا بقيام الساعة ، ووقوع الجزاء لمن نجح أو رسب فى هذه التجربة الدنيوية . عبر القرآن عن ذلك بقوله :

« قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو » (والخطاب بالهبوط هنا لآدم وحواء ، ومعهما إبليس أيضا . وإن كان قد خوطب إبليس بمفرده من قبل بالهبوط فى قـوله تعـالى : **« قال فاهبط منها »** (٣٤) .. ولكن ضم إبليس مع آدم وحواء هنا فى خطاب الهبوط .. ليشير إلى أن هناك تلازما فى التجربة بين طرفى الصراع ، لا يفترق الإنسان فى حياته عن إنسانيته الممثلة فى عقله ، ولا عن شيطانه الممثل فى جانبه المادى أو فى شهوته وهواه) .

« ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » (أى لآدم وحـواء ـ وأبنائهما من بعدهما ـ ولإبليس استقرار فى هذه الحيـاة الدنيا إلى وقت معين) .

« قال فيهـا تحيـون وفيهـا تمـوتون ومنهـا تخـرجون » (٣٥) .. (وفى هذه الدنيا ينشأ بنو آدم ـ وأتباع إبليس منهم ـ ويموتون فيها .. ثم يبعثون من قبورهم للجزاء) .

.. كما استجاب سـبحانه لما طلباه من رحمـة ، فأرسـل رسـله إلى بنى آدم : فى مجتمعات وأمم : الواحدة بعد الأخرى .. وفى أجيال : جيلا بعد آخر .. وفى فترات الزمن : فترة بعد أخرى . وأرسلهم بهدايته وبكتابه ليعين نسل آدم على التغلب على الجانب المادى فى الإنسان .. ليعينه على عدم الطغيان باتجاهه المادى .. ليعينه على عدم اتباع الهـوى ، والشـح

---

(٣٣) الأعراف : ٢٣ (٣٤) الأعراف : ١٣
(٣٥) الأعراف : ٢٤ ، ٢٥

والركون إلى منطق الحس والمشاهد وحده .. ليعينه على أن يكون ذا منطق إنسانى . وهو منطق الحكمة والروحية ، وليس منطق المادية . وتعبيراً عن استجابة المولى هذه ، ورحمة ببنى آدم ، يقول سبحانه :

« **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً** (ويعنى باللباس كتاب الله ورسالته) **يوارى سوءاتكم** (أى هذا اللباس أو الكتاب يعينكم على ستر النقص فيكم . وهو عدم قدرة العقل لديكم على السيادة على الجانب المادى فيكم دائماً) **وريشاً** ، (وفى الوقت نفسه هذا الكتاب زينة ، لأنه يجملكم ويزينكم بقلة الخطأ فى سلوككم وتفكيركم إن اتبعتم هدايته) **ولباس التقوى ذلك خير** » (٣٦) (وهذا اللباس الذى يحمل على تجنب الأخطاء واتقاء الزلات هو خير أنواع اللباس . إذ يبدو الإنسان الذى تستتر به فى أجمل صورة وأبهاها) .

.. وزينة الماديات ليست زينة تجمل من اتبعها وطغى بها . وإنما الزينة الحقيقية : زينة تجنب الأخطاء فى السلوك ، والتفكير : هى تلك الزينة التى تتفق مع مستوى الإنسان ، ومع ما تميز به عن المخلوقات الأخرى : بعقله وإدراكه .

فما فى الدنيا فى واقع الأمر هو لهو ولعب ، وزينة خادعة . وتفاخر بالجاه والأنساب ، وتكاثر فى الأموال والأولاد « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما** » (٣٧) .. فما فى الدنيا ينتهى إذن إلى عدم .. أو إلى : لا شىء .

ولهذه القيمة الضئيلة لماديات الحياة ومتعها المحسوسة لا يقيم مالكها — فى نظر الهداية الإلهية — بمقياس الرضاء عند الله ، ولا المحروم منها بمقياس غضبه عليه .

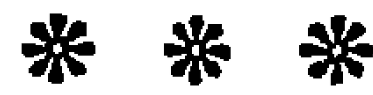
« **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** (أى جماعة واحدة فى الكفر) **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون** .

---

(٣٦) الأعراف : ٢٦ (٣٧) الحديد : ٢٠

ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفا ، وان كل ذلك لما متـــاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » (٣٨) .. (أى لأعطيناهم منهـــ الكثير . لأن امتلاكها لا يدل على مستوى رفيع فى الإنسانية ، ولا على قبول عند الله ، بل يعطى الناس متع الحياة : للابتلاء بها . والذين يطغون بهــا ويركنون إليها وحدها مصيرهم عند الجزاء هو مصير المخربين والفاسدين والعابثين) .

« ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنـــا غافلون . (وهذه الصفات الأربع ـــ التشكك فى الآخـــرة والبعث .. والرضاء بالدنيا وحدها .. والاطمئنان بها والإعراض عن رسالة الله ـــ هى صفات الماديين الذين يتبعون أهواءهم ، ويشحون بما فى أيديهم ، ويركنون إلى المحس وحده : فى المنطق والتصرف .. هى صفاتهم التى تلازمتهم فى كل عهـــد : فيــما مضى .. وفيــما هو حاضر .. وفيــما هو آت) **أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون »** (٣٩) ..



● ما تطلبه الهداية من موقف :

وما تطلبه هذه الهداية الإلهيـــة من موقف ، إزاء هـــؤلاء الماديين هو الإعراض عنهم .. هو عدم وضعهم موضع الأمل فى الاســـتجابة لدعـــوة الإنسانية من : المودة .. والتعاون .. والصداقة .. هو الحذر والحيطة منهم : **« فاعرض عن من تولى عن ذكـرنا ولم يرد الا الحيــاة الدنيـــا »** (٤٠) .. (أى لا تتجه إلى هؤلاء الماديين الذين تعرف ســماتهم برفض كتــاب الله وقرآنه ، إن لم يكن رفضا صريحا فهو رفض عملى ، وصد عن سبيل الله .. وبالتركيز على الحياة الدنيوية ومتعها المادية المحسوسة وحدها . ومن يرفض كتاب الله يرفض الإيمان بالله والعمل بما قام عليه . ومن يركز على الدنيـــا وحدها يتشكك على الأقل فى البعث أى فى انتهاء الدنيا ، إن لم ينكره ، كما يركن إلى الدنيا ويطمئن بها وحدها) .

---

(٣٨) الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥
(٣٩) يونس : ٧ ، ٨
(٤٠) النجم : ٢٩

والإسلام لا يطلب هذا الموقف السلبي وحده . بل قبله يطلب الموقف الإيجابي وهو الإيمان بهداية الله والعمل به . والعمل بالإيمان هو العمل بحكمة الإنسان وعقله . أي من يسير على هداية الله يسير في الواقع وفقاً لمقتضيات العقل لو تجرد الإنسان عن التأثر بجانبه المادى . وليس إذن بين الوحي والعقل إلا التطابق . ولأن العقل قد يجنح ، يكون الوحي معياراً لصحته ، وليس العكس :

« **واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك ، لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** » (٤١) .. (أي لا تجد سوى القرآن ملجأ تلجأ إليه في الهداية) .

ومع الإيمان والعمل بكتاب الله : التضامن التام مع أولئكم الذين يلتزمون الإيمان بالقرآن ، ويتجهون إلى الله في كل لحظة من لحظات حياتهم : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** » (٤٢)

.. وبجانب هذا الموقف الإيجابي القائم على الإيمان والعمل بكتاب الله ، وعلى التضامن مع المؤمنين به المخلصين لربهم : يكون إذن الموقف الآخر . وهو الإعراض وعدم الطاعة لصاحب الاتجاه المادى في الحياة : « **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** (وهو كتاب الله) **واتبع هواه وكان أمره فرطا** » (٤٣) .. (أي وتجاوز فيه الأمر بالطغيان والتبعية لهواه) ..

والإسلام بتحديد هذا الموقف المزدوج من أصحاب الجانب المادى ، لا يقبل من المؤمنين به الإعراض عن المادية والماديين فقط ، فضلا عن عدم قبوله منهم : التقرب إليهم بالمودة : وإنما مع الإعراض عنهم يطلب القرآن :

أولا : العمل بكتاب الله .

ثانياً : التضامن التام مع المؤمنين به .

والمادية ــ التي تمثل الجانب المادى في طبيعة الإنسان ــ إذن : ليست اعتقاداً في أصنام أزيلت وانتهى أمرها بفتح مكة . إنما المادية اتجاه إنساني في طبيعة الإنسان ، يساوق اتجاه العقل فيه سواء بسواء ، ولكن عندما

---

(٤١) الكهف : ٢٧
(٤٢) الكهف : ٢٨
(٤٣) الكهف : ٢٨

يبالغ الإنسان فى اتباع هواه .. وفى الميل إلى الشح .. وفى الركون إلى المحسوس وحده . والماديون ليسوا هم مشركى مكة وعبدة الأصنام فيها حول الكعبة وحدهم ، وإنما هم أولئكم الذين يتولون عن كتاب الله فى كل وقت ، ولا يريدون إلا الدنيا وحدها .. هم الذين لا يرجون لقاء الله فى الآخرة .. هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله .

وتعبير القرآن عن الشرك ، هو تعبير عن المادية . وتعبيره عن المشركين ، هو تعبير عن الماديين . وموقفه من الشرك والمشركين ، هو موقفه من المادية والماديين .



.. وبالبعث .. وبوقوع الجزاء .. وبدخول الإنسان مرحلة الحياة الثانية — وهى حياة الآخرة — تنتهى الغاية من ثنائية الإنسان بين الجانب المادى ، والجانب العقلى ، أو الروحى فيه . إذ خلق الإنسان على هذه الثنائية كان من أجل التجربة فى الحياة الأولى ، وهى حياة الدنيا .. كان من أجل تجربة الإيمان والكفر .. والطاعة ، والعصيان لأوامر الرسالة الإلهية .

ومتع الدنيا كانت للابتلاء والاختبار ، بينما متع الجنة فى الآخرة هى للجزاء .. ونعيم الدنيا ذو متعة خادعة .. بينما نعيم الجنة ذو متعة صادقة . وبينما ثنائية الإنسان كانت فى الدنيا ذات فاعلية فيما بين طرفيها .. هى فى الآخرة ذات انسجام بين هذين الطرفين .

آدم كان فى الجنة ، ونعيمها إذ ذاك كان نعيما ماديا . والمؤمنون من بنى آدم سينتهى أمرهم إليها ، ونعيمها كذلك نعيم مادى ، لا يتغير إلا من حيث النوع والقيمة :

« مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » (٤٤) ..

---

(٤٤) محمد : ١٥

« أن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بأيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » (٤٥) ..

فلا يقال الآن : إن المتقين فى الآخرة ماديون ! .

ولا يقال كذلك : إن جزاء الله للمؤمنين به فى الآخرة هو دفعهم إلى الاتجاه المادى والمادية ! .

لا يقال هذا .. ولا يقال ذاك . لأن المادى هو من عصى ربه فى تقييم المتعة المادية فى الدنيا : فى الإقبال عليها .. وفى الوقوف عندها وحدها .. وفى الإسراف فيها ، دون اعتبار لآخرين معه فى مجتمعه وأمته ، ولأن المادية هى الطغيان بالمتع المادية المتاحة للإنسان .

ولكن المؤمنون فى إقبالهم فى الجنة على جزاء لهم بالمتع المادية لم يكونوا عصاة فى مخالفتهم أمراً له سبحانه فى الاستمتاع بها ، ولم يكونوا أيضاً مسرفين فى الاستمتاع بها ، حتى يعتدى بعضهم بإسرافه على البعض الآخر .

إن بغض الله للماديين وللمادية فى الدنيا هو لما يعود إلى الأنانية التى تنبثق عنها ، والتى تضعف كل مشاركة فى القيم الإنسانية .. وتؤهل بعد ذلك للاعتداء ، أو إلى الشحناء والبغضاء بين الناس بعضهم بعضاً .. كما تؤهل للعبث والفساد والطغيان . فالأنانى يسرف فى استمتاعه بالمتع المادية أن يعبث أو يطغى بها ، ولا يشرك ذا حاجة إليها فيها . والأنانى يرتكب الجرائم الاجتماعية .. يرتكب الاعتداء على العرض بالزنا ، وعلى المال بالسرقة ، وعلى النفس بالقتل : فى سبيل تحقيق شهوته أو اتباع هوى فى النفس . والمجتمع الأنانى ــ وهو المجتمع المادى ــ يستغل مجتمعاً آخر أضعف منه ، ويعتدى على كل قيمه ، ويميت شخصيته ، ويذهب باستقلاله فى سبيل تحقيق هدف استعمارى له ، والأنانى يظلم ولا يعدل ، ويكذب ولا يصدق .. ويعد ثم يخلف ، مرضاة لنفس أمارة بالسوء .

---

(٤٥) الطور : ١٧ ــ ٢٤

أما المؤمنون فى استمتاعهم بالمتع المادية فى الجنة ، فقد صاروا إلى جزائهم الأخروى ، وهم إخوان متحابون .. أى وهم مشاركون بعضهم لبعض فى القيم الإنسانية :

« ان المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين . (متكافئين) **لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » (٤٦)** .. فهم فى آخرتهم بأخوتهم وبملاءمة بعضهم لبعض ، وبزوال الحقد من نفوسهم : قد حققوا رسالة الله التى ناشد الناس جميعاً أن يحققوها من قبل فى دنياهم ، وليس هناك تحديد لما يشاءون هناك : **« ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » (٤٧)** .

ورسالة الله للإنسان على الأرض التى تطلب الروحية وتدفع المادية لا تتجاوز فى طلبها : أن يلائم الإنسان بين طرفى ثنائيته .. أى بين جانبه المادى وجانبه العقلى أو الإنسانى .. ثم بين كل إنسان وآخر فى الحياة معه فى مجتمعه .. أى تطلب التوازن والعدل .

والمادية هى اتجاه نحو الإخلال بالتوازن ، وبالعدل . وهى إذن مصدر إضرار وإيذاء .

والماديون فى كل مجتمع هم مصادر الضرر فيه .

وإذا كانت الروحية التى تطلبها الرسالة الإلهية هى التوازن والعدل : فالمؤمنون فى استمتاعهم بالجزاء المادى الأخروى ، عدول فيما بينهم ، ومتوازنون فى علاقات بعضهم ببعض . ولذا لم يكن فى صدورهم غل ، وكانوا إخواناً على سرر متقابلين ، لا يتميز أحدهم عن الآخر .

رسالة القرآن للناس فى دنياهم هى إذن :

دفع للمادية والماديين فى صراحة : **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » (٤٨)** ..

---

(٤٦) الحجر : ٤٥ — ٤٨

(٤٧) سورة ق : ٣٤ ، ٣٥ .

(٤٨) التوبة : ٢٩

وتحقيق للروحية الإنسانية . .أو تحقيق للتوازن بين ثنائية الإنسان فى وحدته وفرده ، وللعدل الاجتماعى بين الناس كافة .



● ما يستخلص من طبيعة الانسان ــ وهداية القرآن :

.. الإنسان مخلوق من مادة : فالإنسان الأول ــ وهو آدم ــ خلق من طين :

« **الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين** » (٤٩) .. وسلالته بعد ذلك مخلوقة من ماء مهين : « **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** » (٥٠) ..

والإنسان من أجل ذلك محس مشاهد ، ويعيش فى عالم محسوس ، يدرك بالحس .

.. وعالم الإنسان عالم الإمكانيات المادية . كانت الجنة مقاماً للإنسان الأول ــ وهو آدم ــ والجنة ذات إمكانيات مادية عديدة « ويا آدم **اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما** » (٥١) .. وكانت الدنيا مقاما لنسله من بعده ، وهى كذلك ذات إمكانيات مادية عديدة : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا** » (٥٢) .. ففى الجنة كل ما تشتهيه النفس . وفى الدنيا كل ما يستمتع به الإنسان من نساء .. ومن عصبية فى قوة الأولاد والدم .. ووفرة فى الأموال من الذهب والفضة .. وزينة فى الخيلاء والفخفخة من الخيل المسومة .. ومصادر الرزق والقوت من أنواع الثروة الحيوانية والزراعية . ففيها ما تشتهيه الأعين .. والبطن .. والفرج .. وفيها ما تنشده النفس من جاه القوة فى الأموال والأولاد .

وتستوى الإمكانيات المادية للمتعة والزينة فى الأشباه والنظائر : فى

---

(٤٩) السجدة : ٧
(٥٠) السجدة : ٨
(٥١) الأعراف : ١٩
(٥٢) آل عمران : ١٤

الجنة والدنيا ، وإن اختلف ما فى الجنة عما فى الدنيا : فى النوع .. أو فى القيمة الذاتية لها .

.. وليس هناك نوع من الإنسان لا يأكل .. ولا يشرب .. ولا يشتهى المعاشرة الجنسية .. ولا يتطلع إلى الجاه والقوة المادية .

.. هل يعيش الإنسان منطلقا ، لا تحدد حياته قيود ؟ ..

هل يعيش دون أن يدخل فى إطار تنظيمى يحفظ عليه خطر الانطلاق .. أو خطر اللامحدودية .. أو خطر الهمجية ؟ .

وضع الإنسان الأول ــ وهو آدم ــ عندما وجد فى الجنة : أمام تجربة تنظيمية ، تحد من انطلاقه فى المتع المادية ، وتهىء له جواً إنسانيا حضاريا ، لا يقوم على الاستغراق فى المتع المادية وحدها ، يتفق مع ما ميزه الله به عن الملائكة : بالعقل والقلب ، على نحو ما قال : ((**ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون**)) (٥٣) .. فطلب إليه هنا من خالقه : أن يحدد استمتاعه بالإمكانيات المادية المتاحة له فى عالم جنته : ((**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**)) (٥٤) .. ولكن غلب عليه الانطلاق ، هو وزوجه : ((**فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما**)) (٥٥) .. .. أى عرفا خطأهما ، وعدم نجاحهما فى التجربة .

ووضعت سلالة الإنسان الأول من البشر بعده أمام تجربة كبرى فيما وراء عالم الجنة .. فى الدنيا : ((**يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون**)) (٥٦) .. وهى تجربة تنظيمية ، على غرار تجربة الجنة لآدم وحواء .. وأمام إمكانيات مادية متاحة للاستمتاع ، وللجاه ، والقوة ، والزينة ، على غرار إمكانيات الجنة . وهدف هذه التجربة فى الدنيا هو كذلك : منع خطر الانطلاق على البشرية ، وخطر الفوضى فيها .. ثم دفع الإنسان عن طريق التنظيم فى الاستمتاع بالإمكانيات المادية القائمة ليعيش الناس فى عالم رغد ، تسود

---

(٥٣) السجدة : ٩ — (٥٤) الأعراف : ١٩

(٥٥) الأعراف : ٢٢ — (٥٦) الأعراف : ٣٥ ، ٣٦

فيه ، الأخوة الإنسانية .. والتكافؤ فى الاعتبار البشرى .. والمشاركة العادلة فى هذه الإمكانيات ، وليس التزاحم ، والتخاصم ، والتقاتل من أجل الاستمتاع بهذه الإمكانيات المادية .

وتجربة الدنيا أمام البشرية علمت للناس نتيجتها علما مسبقاً واضحا قبل أن تنتهى ، وهى لم تنته بعد . بينما تجربة الجنة لم تعرف نتيجتها لآدم وحواء ــ وهى الخروج من الجنة ــ إلا بعد أن انتهت . إذ أعلم الناس بنتيجة التجربة فى الدنيا : إما إلى الجنة من جديد .. وإما إلى النار ، برسالة الرسل من قبل الله : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيما »** (٥٧) .. أما نتيجة تجربة آدم فقد كان علمه بالعقاب الذى ترتب على عدم نجاحه فيها بالطاعة لأمر الله : علما متأخرا . وقد اختاره الله للرسالة إلى نفسه .. وإلى حواء معه ، وارتبط الأمل فى طاعته بما أعد به كإنسان : من عقل وإدراك . ولكن إخفاقه فى التجربة كان إخفاقاً للعقل البشرى ، وفى عدم استطاعته أن يحد مستقلا من انطلاق الإنسان : **« قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »** (٥٨)

.. ورسالة الرسل إذن هى تحديد أو تنظيم لانطلاق الإنسان فى الاستمتاع بالإمكانيات المادية القائمة على عالم الإنسان .

.. ورسالة الرسل بالتالى ليست انتزاعا للإنسان المخلوق من مادة ، وهو يعيش فى عالم الحس المادى ، وتحيط به الإمكانيات المادية لحياته . وجزاؤه فى الآخرة جزاء مادى . لأنها عندئذ لا تكون تنظيما للإنسان ولا إصلاحا بين أفراده ، ولا إحاطة له بجو حضارى إنسانى ، هو جو السلام .. والصفاء .. والتكافؤ فى الاعتبار ، بدلا من جو التخاصم والتقاتل بسبب الانطلاق فى الاستمتاع بالإمكانيات المادية فى عالم الإنسان .

---

(٥٧) النساء : ١٦٣ ــ ١٦٥ (٥٨) الأعراف : ٢٣

.. والروحية ليست نقلا للإنسان من هذا الجو المادى ، ولا قطعا لصلاته به . لأنها عندئذ تكون ضارة بالإنسان ، أو عملا على إفنائه . وإنما الروحية هى التنظيم نفسه لعملية استغلال هذه الإمكانيات المادية واستخدامها : لصالح الناس جميعا .

.. والدين .. والروحية .. وتنظيم الانتفاع بإمكانيات الحياة المادية .. ورسالة الرسول .. وهداية الله : جميعها تستهدف عدم الانطلاق فى الاستغلال ، واستخدام هذه الإمكانيات ، وعدم الإخلال بالتوازن بين الناس .

.. ووجود العقل البشرى فى الإنسان إنما هو لتقبل هذا التنظيم .. أو لتقبّل الدين .. أو لتقبل رسالة الرسول .. وهداية الله . وأمارة قبول التنظيم هو أن من قبله :

أولا : لا يسرف فى استخدام هذه الإمكانيات لو أتيح له منها قسط كبير .

ثانيا : يشرك غيره ممن لم تتح له — أو أتيح له منها قسط ضئيل — فيما هو كائن لديه .

ثالثا : يقر بالقيم العليا التى تمثلها صفات الله فى علاقته بغيره .. أو بعبارة أخرى :

يؤمن بجانب فى وجوده الإنسانى هو أرفع من وجود الإمكانيات المادية ، وهو وجود الله ، ووجود هدايته التى تحدد إطار التنظيم لاستغلال الإمكانيات المادية .

.. ويستهدف الدين — كما تستهدف الروحية — وتستهدف الرسالة الإلهية : التوازن فى المجتمع البشرى القائم على التكافؤ فى الاعتبار الإنسانى . وهذا التوازن هو ما يعرف أخيراً بالعدالة الاجتماعية .

.. أما المادية — فى مقابل الروحية .. أو فى مقابل الدين .. أو الرسالة الإلهية — فهى تنزع إلى الانطلاق فى استخدام الإمكانيات المادية فى حياة

الإنسان . ومن ثم تنتهى : إلى الإخلال بالتوازن فى المجتمع البشرى .. أو إلى الحيلولة دون تحقيق العدالة الاجتماعية فيه . وأمارة الاتجاه المادى كنزعة تخل بالتوازن :

أولا : الإسراف فى استخدام المتع المادية ، واتباع الهوى فى ذلك ، أو تحكم الأنانية .

ثانيا : الشح والإمساك عن الآخرين أصحاب الحاجة .

ثالثا : إنكار القيم العليا .. وبالتالى إنكار الله وصفاته التى تمثل هذه القيم .

.. وسيظل الإنسان على صلته بالمادة : إن فى تجربته بالدنيا .. أو فى جزائه بالجنة أو النار فى الآخرة .. كما كان على صلة بها من قبل : فى خلقه .. وفى مقامه الأول بالجنة .

وتاريخ الإنسان هو تاريخ لتطوره مع المادة ، التى هى إمكانيات العيش والحياة المادية .

وما يحصل فى مجتمعاته من تغيير : ناتج عن الصورة التى استخدمت بها هذه الإمكانيات المادية :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية (أى مجتمعاً) **أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٥٩) ..**

* * *

● **مجمل ما تدعو إليه هداية الله :**

ــ يحدد القرآن طبيعة الإنسان ..

ــ ويحدد ــ كذلك ــ وظيفة الرسالة الإلهية نحو هذه الطبيعة .

ــ ويبدو واضحا من تحديد هذه .. وتلك : أن وظيفة الرسالة الإلهية فى تحديد القرآن ، هى : تنظيم اتجاهات الطبيعة الإنسانية لإفساح مجال

(٥٩) الاسراء : ١٦

لوجود القيم الإنسانية العليا ، وتحققها فى محيط الحياة للمجتمع الإنسانى ؛ وهى قيم : السلام ، والتعاون ، والتكافؤ ، والأخوة بين الأفراد جميعا ..

وتحقيق هذه القيم يرتبط بتنفيذ هذا التنظيم وحده . أى يتحقق وجود هذه القيم كنتيجة لهذا التنظيم .

.. فالطبيعة الإنسانية فى الفرد ـ كما يراها القرآن ـ تتجه نحو الانطلاق فى السعى نحو الامتلاك ، للمحافظة على البقاء الذاتى .. وهو البقاء الفردى ، دون رعاية للبقاء النوعى فى المجتمع أو فى الأجيال المتعاقبة .

.. والرسالة الإلهية تنظيم هذه الطبيعة فيما تتجه إليه من تجميع وتملك للمال ، على نحو يبقى مجالا لمجتمع إنسانى يسوده : التكافل والتوازن .. أو العدل الاجتماعى .

وليس من وظيفة هذه الرسالة : نقل الإنسان من عالم مادى ، وجد من أصل من أصوله ـ وهو المادة ـ .. ونشأ فيه .. ويعيش فى جوه فقط .. إلى جو آخر غير مادى ، على النقيض منه . فجو الإنسان هو جو مادى : فى الخلق .. وفى النمو .. وفى الحركة .. وفى الحياة الأولى على الأرض .. وفى البعث من القبر .. وفى الحياة الآخرة فى الجنة ، أو فى النار .

.. والرسالة الإلهية لا تعزل الإنسان إذن عن هذا الجو . وإنما تحدد علاقته به فحسب .

وعن اتباع هذا التحديد يحل السلام محل التقاتل .. ويحل التكافل محل شره الأنانية أو انطلاقها .. ويحل التكافؤ فى الاعتبار البشرى محل الاستعلاء والاستضعاف .. وتحل المودة محل الحقد والاندفاع نحو سفك الدماء .

.. ورسالة القرآن لذلك ليست لفرد فى علاقته بالمسجد فقط دون علاقته بالآخرين ممن يسوسون الأمور ويقومون بالفصل بين الناس .. أو بمن يخضعون لهذه السياسة ويقبلون أمرهم بالفصل بينهم .. إذ طالما هذه الرسالة هى تنظيم لطبيعة الفرد ، وحد من انطلاقه : فهى تلحق طبيعة كل فرد فيما يباشره من أمر : صغر أو كبر .. كان خاصا أم عاما .

.. والرسالة الإلهية إذا كانت تنظيمـا للفرد فى علاقتـه بالمادة : إن فى السعى إليها ، أو فى امتلاكها .. فهى تقر النفع بالمادة كما تقر خيرها . وهى تقـر هـذا .. وذاك : منـذ اللحظـة الأولى لتبليغهـا للإنسـان . **« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » (٦٠) ..**

.. وشرها ليس فى ذاتها . وإنما هو فى الإسراف فيها ، أو فى الانطلاق نحو اقتنائها وامتلاكها وحبس ما يقتنى أو يمتلك عن أصحاب الحاجة .

إن ما يسمى إذن بوجود الإمكانيات الاقتصـادية ــ أو بالإمكانيات المادية ــ فى معيشة الإنسان ، هو موضوع التنظيم لما جاءت به الرسـالة الإسلامية .

والموازنة بين الإسلام من جانب وبين النظم الفلسفية التى تعالج تنظيم هذه الإمكانيات من جانب : هو فى الآثار الإيجابية أو السلبية التى تترتب على تطبيق أى منهما .

فشعار المؤمن نحو غيره فى مجتمعه ــ كمـا جاء فى وصف الأبرار فى سورة الإنسان فى قوله تعـالى هو : **« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . انا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا » (٦١) ..** وهو شعار أداء الواجب لذاته .. وشعار المشاركة أو التكافل الاجتماعى ، حبـا فى الله وإيمانا به ، وفى المصلحة العامة . والنداء الذى يوجه للمؤمنين عامة فى شأن ما يقتنى هو : **« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيـة من قبل ان ياتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » (٦٢) ..** هو إخلاص لله فى الطاعة .. وإنفاق فى سبيل الله والخير العام مما يملك الإنسان . أما شـعاره نحو نفسه ، فهو كما جاء فى الحديث الشريف : « المؤمن يأكل ويشرب فى معى واحدة (أى لا يأكل كثيراً ليفيض عنه لغـيره) ولكن الكافـر يأكل ويشرب فى سبعة أمعاء (أى يفرط فى الأكل والشرب ، لأنه لا يفكر إلا فى ذاته) .

---

(٦٠) الاعراف : ٣١

(٦١) الانسان : ٨ ــ ١٠

(٦٢) ابراهيم : ٣١

وشعار الماديين نحو غيرهم ، هو : فيما يصوره قول الله تعالى : « **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين . واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين** » (٦٣) .. أنانية وشح . وشعارهم نحو أنفسهم هو ما تعبر عنه الآية الكريمة :

« **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** » (٦٤) .. أنانية وطغيان ، وإسراف فى الاستمتاع .. وتجاهل وإنكار للآخرين فى المجتمع .

والملكية الفردية إذن أساس ضرورى فى الإسلام لاختبار مدى الطاعة فى الإنفاق فى سبيل الذات ، وفى سبيل الخير العام معا . إذ بدون الملكية الفردية لا يعرف طائع من عاص . وإنما يعرف فقط : نفاق فى الاستجابة : « **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات** (أى فى الرزق والملك) **ليبلوكم فى ما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم** » (٦٥) ..

« **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ،** (أى فى الرزق والنعمة) **وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** » (٦٦) .. ففى هذه الآيات يعبر القرآن صراحة عن التفاوت فى ملكية المال . وهو لا يكون إلا إذا كانت الملكية الخاصة قائمة .

والملكية الفردية أساس ضرورى أيضا فى علاقات الناس بعضهم ببعض .. وفى توازن المجتمع .. وفى تبادل الخدمات فيه « **أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** (فى ملكية المال ومتع الحياة) **ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ،** (أى ليمكن أن يتبادل بعضهم مع بعض : الأجور من جانب ، والخدمات من جانب آخر) **ورحمة ربك خير مما يجمعون** » (٦٧) ..

وفى تنظيم الإسلام للإمكانيات الاقتصادية فى حياة البشر — أو فى رسالته إلى الناس بشأن الاستمتاع بالمتع المادية فى الحياة — يرعى مشيئة

---

(٦٣) يس : ٤٦ ، ٤٧
(٦٤) محمد : ١٢
(٦٥) الانعام : ١٦٥
(٦٦) الاسراء : ٢٠ ، ٢١
(٦٧) الزخرف : ٣٢

الإنسان : أى يرعى كرامته كطبيعة تتميز بالعقل فى الوجود . بينما التنظيم الذى تقيمه بعض الأيديولوجيات المادية : يرعى الإلزام والإكراه . فهو يكره على عدم التملك ، ويدفع بالسلطة الجبرية وحدها لتنفيذ تنظيمه فى عدم الاقتناء لتحقيق ما يسمى بالتوازن فى حاجات الناس .

ولذا كان الإسلام نظاماً تراعى فيه الخصائص الإنسانية المميزة : الإرادة الحرة وكرامة العقل .. والمشاركة ذات المسئولية فى عمل المجتمع : وبنائه .. وتماسكه : إنه دين الحضارة .



الباب الثاني

صنعة الإنسان حول كتاب الله

- القرآن ـ والتفسير الموضوعي
- القرآن ـ والتحديات بين الأمس واليوم ..

الفصل الأول :

القرآن .. والتفسير الموضوعى

إذا كان المتقدمون من علماء المسلمين خدموا القرآن الكريم بتجليه معاني كلماته وآياته .. وبيان موقعها فى فصاحة العرب : فى الأسلوب والتراكيب ، والإعجاز .. واستخلاص الأحكام الفقهية منها.. والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات فى العقيدة والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة .. فإن ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذى يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن ، كدليل صادق على رسالة الرسول عليه السلام . وإنما كان أشبه بتوضيح مفكك للهداية الإلهية . وربما كان التفسير الموضوعى ، أو استخلاص جوانب هذه الهداية ، بحيث تحدد أهداف الرسالة ، هو السبيل الأيسر للإيمان بمستواها الرفيع الذى يعجز عنه البشر . ومحاولة التفسير الموضوعى لم تحظ لديهم ، بمثل ما حظى عندهم : وقوفهم عند حد الآيات .. والعناية بتراكيبها .. وارتباط اللاحق منها بالسابق .

والتفسير الموضوعى ليس تفسير جملة من الآيات .. ولا استخلاص مضمونها فى وحدة قرآنية واحدة . وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل ، من نظرة موضوعية شاملة مرة .. أو استخلاص موضوع محدد : كمنهج القرآن فى تطوير المجتمع ، أو موقف القرآن من المادية ، مرة أخرى .. أو استخلاص هدف السورة الواحدة وما عنيت بإبرازه فى إطار الدعوة كلها ، مرة ثالثة .



⊛ هدف القرآن ، ككل :

فهدف القرآن جملة ، هو :

أولا : مقاومة الشرك المادى .. أو الوثنية المادية . ويظهر هذا الاتجاه بوضوح فى السور والآيات المكية . ومقاومة الوثنية المادية فيما تظهر فيه من ظواهر .. أو فيما توجهه من اتهامات إلى القرآن ، وإلى الرسول عليه السلام .. أو فيما تصف به الله ، أو تتصوره من صفات له : كوجود شركاء له .. أو وجود أولاد منه .. أو فيما تنكره من دعوة القرآن ، كالبعث والجزاء الأخروى .

والهدف الثانى : هو تصحيح ما وقع من تحريف أهل الكتاب فى رسالة الله السابقة ، وبالأخص من بنى إسرائيل فى التوراة .. والإنجيل معا . وقد بلغ هذا التحريف قمته فى الشرك بالله وتأليه الإنسان . ويتكفل جزء كبير مما ورد فى السور المدنية ــ وبالأخص فى سورتى آل عمران والمائدة ــ ببيان تحريف اليهود والنصارى . وقد أشار القرآن إجمالا إلى هذا الجانب : فى قول الله تعالى : **« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل (يهوداً .. ونصارى) أكثر الذى هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين . ان ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » (١) ..**

أما الهدف الثالث فهو : بناء المجتمع الإسلامى ــ طبقا لتطوره ، بعد قيامه بيثرب ــ على أساس : التكافؤ فى الاعتبار البشرى .. والتكافل فيما بين أفراد المؤمنين جميعا ، فيما يحقق بينهم العدل الاجتماعى ، بالبعد عن الإسراف فى الاستمتاع بالمتع المادية المتاحة فى محيط الناس .. وبالإنفاق الحر منها فى سبيل الخير العام للأمة . وهذا الجانب الثالث تقوم به السور المدنية فى القرآن الكريم .

والحديث الذى يروى ، من أنه : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام .. والمسجد الأقصا .. ومسجد الرسول عليه السلام بالمدينة » .. هو حديث يربط هذه الجوانب الثلاثة لمضمون القرآن ،

---

(١) النمل : ٧٦ ــ ٧٩

ككل ، بالمساجد الثلاثة . على معنى : أنه فى شد الرحال إلى أى مسجد منها : يتذكر المؤمن جانب الرسالة الذى ارتبط به .. ويتذكر بالتالى ما يجب عليه من المشاركة فى تحقيقه :

مقاومة المادية :

فزيارة المسجد الحرام تشد الزائر له . إلى تذكر فساد الشرك وأخطار الوثنية المادية على البشرية على نحو ما سيطرت على جو العهد المكى فى تاريخ المجتمع العربى هناك . ومن ثم تدعوه إلى الوقوف فى وجهها .. وإلى مطاردتها فى أى وقت أو فى أى عهد تظهر فيه مرة أخرى فى المجتمع الإنسانى . وفى تحديد القرآن لمظاهرها لا تخفى معالمها إطلاقاً ، مهما حاولت أن تتستر وراء شعارات خادعة : كشعارات الإنسانية .. أو نصرة الكادحين .. أو تحقيق العدل الاجتماعى . فأهم مظاهرها :

أولا : الإعراض من الماديين عن دين الله : **« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين »** (٢) ..

ثانياً : اشمئزازهم من ذكر الله إذا ذكر وحده : **« واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون »** (٣) ..

ثالثاً : إيثارهم الحياة الدنيوية وحدها .. وإلحاحهم فى طلبها : **« فأعرض عن من تولى عن ذكرنا** (كتاب الله) **ولم يرد الا الحياة الدنيا »** (٤) ..

رابعاً : إنكارهم البعث وجزاء الآخرة : **« وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر »** (٥) ..

خامساً : تمكن الشح من نفوسهم : **« واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله** (أى على الضعفاء .. وأصحاب الحاجة فى المجتمع) **قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله اطعمه »** (٦) .. (يقولون ذلك : سخرية واستهزاء) .

---

(٢) يس : ٤٦
(٣) الزمر : ٤٥
(٤) النجم : ٢٩
(٥) الجاثية : ٢٤
(٦) يس : ٤٧

سادساً : إنفاقهم الأموال — إن أنفقوها — فى الصد عن سبيل الله ، وهى : سبيل الخير .. والاطمئنان .. وحسن العلاقات بين الناس : **« ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله »** (٧) ..

سابعاً : طغيانهم بالمال وبالقوة على غيرهم من المسالمين أو الضعفاء : **« وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين »** (٨) .. **« ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . ان كان ذا مال وبنين »** (٩) ..

ثامناً : إسرافهم فى تجاوز العدل .. وإمكانيات الحياة المادية استجابة للأنانية .. وإمعانا فى حرمان الآخرين وإذلالا لهم **« فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون »** (١٠) ..

تاسعاً : تنكبهم عن الصراط السوى بالإلحاد .. وباللاأخلاقية .. وبسفك الدماء : **« وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون »** (١١) ..

عاشراً : إيمانهم بالشواهد والدلائل المادية وحدها ، وإنكارهم ما وراءها من المعانى والقيم الإنسانية : **« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه »** (١٢) ..

حادى عشر : استهدافهم من معارضة الدين : التفرد بالسلطة وبالسيادة على المجتمع .. وعلى العالم فى غير نقد : **« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب »** (١٣) ..

وأما ادعاءات هؤلاء الماديين بالنسبة للقرآن — وكذلك بالنسبة لكل رسالة إلهية — فيدعون :

---

(٧) الانفال : ٣٦
(٨) سبا : ٣٤ ، ٣٥
(٩) القلم : ١٠ — ١٤
(١٠) الشعراء : ١٥٠ — ١٥٢
(١١) المؤمنون : ٧٤
(١٢) الاسراء : ٩٠ — ٩٣
(١٣) النحل : ١١٦

(أ) أن القـرآن من عمـل الرسـول .. وليس وحيـا إلهيـا :
« وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه (أى تقوّله وألفه ثم نسبه إلى الله كذبا وافتراء) **وأعانه عليه قوم آخرون » (١٤) ..**

(ب) وأنه تلقنه وتعلمـه من غـيره ، فهـو مؤلفـه .. وصـاحبه :
« ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر » (١٥) ..

(جـ) وأنه مصدر خـداع للنـاس .. وليس مصـدر هداية واقعية :
« ولما جاءهم الحق (القـرآن) **قالوا هذا سحر وانا به كافرون » (١٦) ..**

(د) وأنه أساطير .. وخرافات ، لا تقف أمام العقل والتجارب العلمية :
« وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » (١٧) ..

.. كما يصفون الرسول عليه السلام :

١ ــ بأنه سـاحر : يخـدع غـيره بدعـوته **« قال الكافرون ان هذا لساحر مبين » (١٨) ..**

٢ ــ وبأنه مجنون ، إذ يتطاول بنقد الوضع القائم للمجتمع ويعلو على زعمـائه وكبـرائه : **« وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر** (أى القـرآن) **انك لمجنون » (١٩)**

٣ ــ وبأنه من آحاد النـاس وليس من العظـماء والزعمـاء :
« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٢٠) ..

* * *

● تصحيح اخطاء أهل الكتاب :

أما زيارة المسجد الأقصا ، فإنها تذكر الزائر المؤمن بدعوة الرسـول عليه السلام بالجانب الثانى فى رسالة القرآن . هو : جانب تصحيح انحرافات أهل الكتاب من بنى إسرائيل (يهود .. ومسيحيين) : لكتاب الله : التوراة .. والإنجيل من بعده .

---

(١٤) الفرقان : ٤
(١٥) النحل : ١٠٣
(١٦) الزخرف : ٣٠
(١٧) الفرقان : ٥
(١٨) يونس : ٢
(١٩) الحجر : ٦
(٢٠) الزخرف : ٣١

وقد تمت زيارة الرسول عليه السلام للمسجد الأقصى بالإسراء إليه ، كما يذكر قوله تعالى : ((**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصا الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير**)) (٢١) .. ويروى فى الأحاديث الصحيحة : أنه عليه السلام صلى فى المسجد الأقصى وأمّ رسل بنى إسرائيل وأنبياءهم . وفى مقدمتهم : موسى .. وعيسى ، إيذانا بأن إمامته فى الصلاة لهم : هى تكليفه من قبل الله فى قرآنه : بتصحيح الانحرافات التى طرأت على رسالة الدين الإلهى من جانب بنى إسرائيل .

وفى سورة الإسراء يتحدث المولى جل شأنه عن : أن هداية القرآن هى هداية أقوم السبل فى مواجهة ما تبقى من كتاب الله ، أرسل به رسل سابقون : فيقول : ((**ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**)) (٢٢) .. (أى أقوم سبيل للهداية .. ومعنى ذلك : أن كتاب موسى .. أو عيسى يمثل فقط بقية من هداية الله ، لما قد تعرض له الكتاب من تصحيف) ..

والقرآن يعيد رسالة الله الحقة فى جوهرها ، التى أرسل بها موسى ، ثم عيسى من بعده عليهما السلام : ((**وأنزلنا اليك الكتاب بالحق** (وهو القرآن) **مصدقا لما بين يديه من الكتاب** (أى التوراة والإنجيل) **ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ،** (أى إليك .. وهو القرآن) **ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**)) (٢٣) ..

.. كما يضع الرسل جميعا سواء فى وجوب الإيمان بهم من المؤمنين برسوله وهو محمد عليه السلام ((**قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**)) (٢٤) ..

.. ومكة هى من أجل ذلك أصبحت قبلة المؤمنين بالله : من أهل الكتاب .. أو من المؤمنين بالرسول محمد عليه السلام : ((**قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد**

---

(٢١) الاسراء : ١ — (٢٢) الاسراء : ٩

(٢٣) المائدة : ٤٨ — (٢٤) آل عمران : ٨٤ ، ٨٥

الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون)) (٢٥) .. فمكة أول بيت لله . وضعه إبراهيم وإسماعيل ، وإبراهيم يعود إليه في النسب : محمد عليه السلام .. كما يعود إليه رسل بنى إسرائيل ، وأنبياؤهم : ((**ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم))** (٢٦) ..

● أخطاء أهل الكتاب :

هى أخطاء فى الاعتقاد . إما بجعل الإنسان ابناً لله ، وبذلك يكون شريكا له فى الألوهية على نحو ما قالت اليهود فى عزير .. والنصارى فى المسيح : ((**وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ،** (وهم المشركون الماديون عندما قالوا : الملائكة بنات الله) **قاتلهم الله ، انى يؤفكون))** (٢٧) .. وإما بجعل الإنسان إلهاً هو الله ، كما صنع المسيحيون فيما يحكى عنهم فى قول الله تعالى : ((**لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم))** (٢٨) .. وإما بالتثليث ، كما قال المسيحيون أيضا ، فى الله .. وعيسى ومريم ، وحكى عنهم القرآن ذلك فى مثل قوله : ((**لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد))** (٢٩) ..

وقد دعاهم القرآن : مصححا لهم هذا الخطأ فى الاعتقاد ، فى قول الله تعالى : ((**قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً** (إنسانا ما : أو رسولا ما) **ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون))** (٣٠) ..

.. وأخطاء أخرى تتعلق بالاحتراف بالدين . وصور هذا الاحتراف عديدة ، منها ، إخفاء بعض ما جاء فى كتاب الله : التوراة ، أو الإنجيل ، وإظهار البعض الآخر منه ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ((**تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً))** (٣١) .. والهدف من ذلك جعله مصدراً للكسب ،

---

(٢٥) البقرة : ١٤٤
(٢٦) آل عمران : ٩٦ ، ٩٧
(٢٧) التوبة : ٣٠
(٢٨) المائدة : ١٧
(٢٩) المائدة : ٧٣
(٣٠) آل عمران : ٦٤
(٣١) الأنعام : ٩١

كما يعبر قول القرآن الكريم : **« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب** (من يهود ومسيحيين) **لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم** (أى نبذوا العهـــد والميثـــاق) **واشـــتروا به ثمناً قليلا ، فبئس ما يشترون »** (٣٢) ..

وقد طلب إليهم القرآن أن يتبعوا ما جاء فى القرآن ، حتى يقفوا على ما خفى عليهم فى كتاب موسى ، وعيسى ، إذ يقول لهم : **« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا**(يريد محمداً عليه السلام) **يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب »** (٣٣) كما هدد زعماءهم ممن يباشرون هذا التحريف ، وأنذرهم بقـــول الله تعـــالى : **« ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيـــــامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »** (٣٤) ..

..ومنها الاحتراف بالدين فى صورة تأويله تأويلا محرفا لقصد دنيوى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : **« فبما نقضهم ميثاقهم** (وهم بنو إسرائيل) **لعناهم وجعلنـــا قلوبهم قاســـية ، يحـــرفون الكلم عن مواضـــعه »** (٣٥) .. (أى إن بنى إسرائيل لحقتهم لعنة الله وغضبه ، بسبب أنهم نقضوا ميثـــاق الله فى وجوب كونهم أمناء على دينه : فحرفوا الكلم عن مواضعه ابتغـــاء الحياة الدنيا ، وبذلك قست قلوبهم ، فلم يعودوا مباشرين لعمل ســـوى الفساد والطغيان) .

.. وأخطاء من نوع ثالث تتعلق بالانحراف فى السلوك ، بسبب الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى . وترجع هذه الأخطاء فى جملتها إلى : العصيان .. وعدم طاعة الله فيما يأمر به أو ينهى عنه : كمباشرتهم العمل يوم السبت مع أنهم نُهوا عنه .. وكدخولهم إلى القرية التى كلفوا بالدخول إليها فى طاعة واســـتسلام لله سبحانه ، فى كبرياء وغطرســـة : **« وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت »** (٣٦) ..

.. وإلى اعتدائهم بالقتـــل على نفوس الأبرياء كقتلهـــم الأنبيـــاء :

---

(٣٢) آل عمران : ١٨٧
(٣٣) المائدة : ١٥
(٣٤) البقرة : ١٧٤
(٣٥) المائدة : ١٣
(٣٦) النساء : ١٥٤

« **وقتلهم الأنبياء بغير حق** » (*) .. وإلى سفك الدماء ، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم :

« **واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم ، افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** » (٣٧) .

.. وإلى أخذهم الربا .. وأكلهم أموال الناس بالباطل : « **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . واخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم اموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً اليما** » (٣٨) ..

.. وإلى ادعائهم الباطل . كقولهم على مريم بهتانا عظيما : « **وقولهم على مريم بهتانا عظيما** » (٣٩) وكقولهم : إنا قتلنا المسيح ابن مريم : « **وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** » (٤٠) .. وقولهم : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة : « **وقالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون** » (٤١) .. وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه : « **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** » (٤٢) وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى : « **وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم** » (٤٣) .. وقولهم لما هو حلال من الطعام : هذا حرام ، كذباً وزورا : « **كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة** » (٤٤) ..

.. وقولهم على الله : يد الله مغلولة : « **وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا** » (٤٥) ..

.. وقولهم على الله : إن الله فقير ونحن أغنياء : « **لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا** » (٤٦) ..

(*) النساء : ١٥٥
(٣٧) البقرة : ٨٤ ، ٨٥
(٣٨) النساء : ١٦٠ ، ١٦١
(٣٩) النساء : ١٥٦
(٤٠) النساء : ١٥٧
(٤١) البقرة : ٨٠
(٤٢) المائدة : ١٨
(٤٣) البقرة : ١١١
(٤٤) آل عمران : ٩٣
(٤٥) المائدة : ٦٤
(٤٦) آل عمران : ١٨١

وقد أجمل هذه الأخطاء فى سلوكهم ، قول الله تعالى : « **وترى كثيراً منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار** (وهم علماء اليهود وكتابهم) **عن قولهم الاثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون** » (٤٧) .. وسجل عليهم لعنة الله فى قوله : « **لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون** » (٤٨) ..

وسورتا : آل عمران .. والمائدة ، فى مقدمة السور المدنية التى تبرز خصائص أهل الكتاب وموقف القرآن منهم ، وموقفهم هم من رسالة الله .



● بناء المجتمع الانسانى :

وأخيرا : فإن زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بيثرب تذكر الزائر له والمصلى به بالهدف الثالث من أهداف القرآن . وهو هدف بناء المجتمع الإسلامى بالمدينة ، كى يراجع الزائر نفسه وما يلتزم به إزاء قوة هذا المجتمع وتماسكه : إن فى الارتباط بأفراده .. وإن فى الدفاع عن بقائه .

وقد أقيم المجتمع الإسلامى على أصول عامة فى سياسته الداخلية .. وأخرى فى سياسته الخارجية :

● فى أصول سياسة الحكم :

بقاء المجتمع : وتماسكه : وهذان الأمران ـ بقاء المجتمع وتماسكه ـ مرهونان باستمرار الإيمان بالله وحده ، وبعدم الشرك به فى أية صورة من صوره .. ثم باستمرار العمل الصالح . وهو العمل طبقا لما جاءت به رسالة الإسلام ، يقول الله تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً** ، (وهو الخوف من الزعماء

---

(٤٧) المائدة ٦٢ ، ٦٣

(٤٨) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

والمستكبرين فى المجتمع .. والخوف من أعداء الله فى داخله وخارجه .. هو الخوف من قلة العـدد للمؤمنين وضعف الشـوكة لهم) **يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »** (٤٩) ..

.. فإذا ضعف الإيمان عند قادة المجتمع وزعمائه ، وخرجوا عن جادة العمل الصالح ، واستمرأوا الاعتداء ومباشرة الجرائم فى حكمهم .. والعبث والفساد فى سلوكهم : فإن تغيير قيادة مجتمعهم آنئذ صورة من صـور الإرادة الإلهية النافـذة : « **وإذا أردنا أن نهـلك قـرية** (أى مجتمعا) **أمرنا مترفيها ففسـقوا فيها فحق عليها القول فـدمرناها تدميراً »** (٥٠) .. « **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ، (أى ليشيعوا فى المجتمع : العـدوان .. والفسـاد .. ومباشرة الجـرائم الاجتماعيـة) **وما يمكرون إلا بأنفسهم** (أى وما يعود أثر عدوانهم ، وفسادهم ، وارتكابهم الجرائم إلا على أنفسهم بتغيير قيادتهم وتحويل مجتمعهم الفاسد إلى مجتمع عادل محسـن) **وما يشعرون »** (٥١) .. (أى بوقوع هذا التغيير إلا فور وقوعه) .

وفى توازن الاقتصاد .. وتحقيق العدل بين أفراد المجتمع :

وفى هذا الجانب يحرص القرآن على عدة أمور ، منها :

أولا : المحافظة على الملكية الخاصة للمال : « **أهم يقسمون رحمة ربك** ، (والخطاب تأنيب للماديين الوثنيين بمكة عندما اعترضوا على اختيار الرسول محمد عليه السلام للرسالة من ربه : « **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »** (٥٢) ..) **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** ، (أى فنحن قادرون على أن نختار من نشاء للرسالة .. بعد أن قسمنا بينهم فى المعـايش والأرزاق) **ورفعنا بعضـهم فوق بعض درجـات** (فى المعيشـة والأمـوال) **ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا »** (٥٣) .. (أى ليستخدم بعضهم بعضا . فصاحب المال يعطى الأجر على عمـل ممن لا يملك المال ، ويستطيع العمل فى الوقت نفسه ، وصاحب الاستطاعة على

(٤٩) النور : ٥٥
(٥٠) الاسراء : ١٦
(٥١) الأنعام : ١٢٣
(٥٢) الزخرف : ٣١
(٥٣) الزخرف : ٣٢

العمل يقدم عمله لصاحب المال ، ويأخذ أجره منه . وبذلك تتبادل المصالح والمنافع بين الأفراد فى المجتمع .. وهذا التبادل سر من أسرار ارتباطه) .. فإذا ألغيت الملكية الخاصة اعوج وضع المجتمع ووقف تبادل المصـالح بين الأفراد .

وفى النظام الماركسى فى الوقت الذى يلغى فيه الملكية الخاصة للأفراد .. يحول ملكية المال لطبقة معينة ، ومجموعة أخرى هى مجموعة الحزب . فالحزب يسخر من لا يملكون المال ، ويستطيعون العمل : من أجل العمل ، نظير أجر يتقاضونه من حكومته . وما يسمى فى هذا النظام بالملكية العامة : هو شعار الدولة الحقيقى : ملكية الحزب وعصابة الحكم .

وكذلك إذ يجعل الله ملكية المال ، بجانب وظيفته الاجتماعية ، وسـيلة لابتلاء من يملكه فى طاعة الله ــ والابتلاء مقدمة ضرورية لجزاء الآخرة ــ فإن الابتلاء يسقط ، إذا لم تكن هناك ملكية خاصة قائمة « **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصـابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون** » (٥٤) ..

فتبادل المصالح بين أفراد المجتمع من جانب .. وتحقيق ابتلاء الله بالمال للإنسان من جانب آخر : يجتمعان فى نظر الإسلام فى بقاء الملكية الخاصة وعدم إلغائها وتحويلها إلى ملكية عامة .

ثانياً : المنفعة العامة للمال الخاص . فكون الملكية ملكية خاصة لا يعنى فى نظر الإسلام : المنفعة الخاصة للمال : بل مع كونها خاصة : منفعتها عامة . ويدل على ذلك قوله تعالى : « **والله فضـل بعضـكم على بعض فى الرزق** » (أى فهناك تميز فى الملكية والأرزاق .. هناك المتفوق فى ثرائه والأقل منه ثراء .. وهناك المحروم ، وصاحب الحاجة) **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم** (ومن بين الذين لا يملكوا ــ ولا يحق لهم أن يملكوا طالما بقيت لهم صفتهم وهى الرق ــ الأرقاء الذين يدخلون فى ملك اليمين . ومع كونهم لا يملكون فما يعطونه من أرزاق ممن ملكت يمينهم ، ليس فى واقع أمره : مقتطعا من أموالهم . بل هو حقهم فى مال المالك . وهم والمالك

---

(٥٤) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦ .

سواء فى الانتفاع بما يملك المالك مـن مال) **فهم فيه سواء ، افبنعمة الله يجحدون » (٥٥)** .. كما يدل قوله : **« ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم** (أى ليس هناك ممن هم ملك اليمين من الأرقـاء : شريك فى رزق السـيد وفى ماله) **فأنتم فيه سـواء** (ومع ذلك فالأرقاء والأسياد سواء فى منفعة المال الذى هو بيد أسيادهم) **تخافونهم كخيفتكم انفسكم » (٥٦)** .. (أى تحرصـون أيها الأسـياد على أرقائكم فى معايشهم كما تحرصون على معايش ذواتكم) .

ولكون منفعـة المال الخاص : منفعة عامة يحمل الإسلام من يملكونه : على إنفاق الزائد عن حاجة المالك فى سبيل الخير العام والمصلحة العـامة . تحقيقا لوظيفة المال الاجتماعية . فيقول الله جل جلاله **« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ، (والأموال التى يملكها المؤمنون ملكية خاصة هى التى استخلفهم فيها الله لصالح أنفسهم ولصالح العباد معهم . ولم يحدد الإسلام مقدار ما ينفقه المالك . بل تركه لتقديره هو ولإيمانه بالله وبأمتـه) **فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير » (٥٧)** ..

كما يقول : **« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** (أى جعلناكم أصحاب أمر : أجيالا بعد أجيال) **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** (فى الأمـوال والأرزاق) **ليبلوكم فى ما آتاكم ، ان ربك سريع العقـاب وانه لغفـور رحيم » (٥٨)** ..

ولكى تصان المنفعة العامة للمال عن العبث .. ولكى تصل كذلك إلى أصحاب الحاجة فى الأمة : نهى القرآن عن الانحراف فى استخدام المال . فقـال : **« ولا تاكلوا أموالكم بينـكم بالبـاطل** (إذ الحصول على المال من غير طريق مشروع يمنع من أخذ منه عن أن ينفق بعضا منـه على الأقل فى سبيل المصلحة العامة ، لأنه يفتقده الآن .. كما يمنع الآخذ له من إنفاقـه كذلك فى هذه السبيل . لأن تحصيله له من غير وجه مشروع يدل على أنانيته وعدم اعترافه بغـيره معه) **وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقاً من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » (٥٩)** .

---

(٥٥) النحل : ٧١
(٥٦) الروم : ٢٨
(٥٧) الحديد : ٧
(٥٨) الأنعام : ١٦٥
(٥٩) البقرة : ١٨٨

وهناك إذن سبيلان للانحراف فى استخدام المال . الأول : تحصيله فى المعاملات التجارية والمالية والزراعية عن طريق غير مشروع . والثانى : التواطؤ مع من لهم سلطة الحكم عن طريق الرشوة فى الحيلولة دون وصول الحق إلى أصحابه .

ويجب أن لا ينظر المالك للمال على أن ملكه تعبير عن رضاء الله عنه . وإنما هو للاختبار به فقط . ولذا يجب أن لا يتحايل فى الحصول عليه .. كما يجب أن لا يمسكه فلا يوصل منفعته للآخرين : ((**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**)) (٦٠) ..

ومن أجل أن ملك المال ليس تعبيرا عن رضاء الله عن مالكه ، ربما يفوق الكافر بالله .. المؤمن به ، فيما يملك من المال : ((**كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا** . (أى على كافر) **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ،** (أى فى المال والرزق فى الدنيا) **وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا**)) (٦١) ..

وفى الحرب .. والسلام ، من أجل بقاء المجتمع :

ويرى الإسلام أن القتال ضرورة تفرض نفسها على المجتمع المؤمن بالله لدفع الاعتداء عليه .. ولتوفير الأمان والطمأنينة فى الحياة مع أعدائه فى الوقت نفسه . فأعداء المجتمع المؤمن بالله ــ وهم الملحدون الماديون ، وكذلك المحرفون لدين الله من أهل الكتاب ــ يضمرون العداء له ، ويتربصون به فى الأزمات والشدائد : ((**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا**)) (٦٢) ..

وقد جاءت ضرورة الإعداد للقتال فى قول الله تعالى : ((**كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون**)) (٦٣) ..

ولكن ليس معنى : أن القتال قد فرض على المؤمنين .. أنهم يباشرونه

---

(٦٠) التوبة : ٣٤
(٦١) الاسراء : ٢٠ ، ٢١
(٦٢) البقرة : ٢١٧
(٦٣) البقرة : ٢١٦

مع مخالفيهم فى الإيمان ، وإن لم يعتد هؤلاء عليهم . بل مباشرته مقرونة بتلبس أعدائهم بالعدوان عليهم : **« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، أن الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم** ، (أى أن تجعلوهم أولياء وأصدقاء لكم) **ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون »** (٦٤) ..

وضرورة القتال فى فرضه على المؤمنين أمر أبدى ومستمر فى حياتهم ليوم البعث . لأن الكفر .. والإيمان بالله ــ كضرورتين من ضرورات المجتمع ــ باقيان أيضا إلى يوم قيام الساعة : **« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم** ، (أى بسبب الابتلاء فى طاعة الله خلق الله الناس . ونتيجة هذا الابتلاء : إما الكفر .. أو الإيمان به ، وقد جاء أول ابتلاء للإنسان : فى أمر آدم وحواء ، بأمرهما بالامتناع عن الأكل من شجرة معينة فى قول الله تعالى : **« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »** (٦٥) ..) **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة** (أى من أشرار الناس غير المعروفين بشرهم لمن عداهم) **والناس** (أى المعروفين لغيرهم بأنهم مصدر شر) **أجمعين »** (٦٦) ..

وإذا كان مبدأ إنفاق المال فى سبيل المصلحة العامة ــ أو فى سبيل الله ــ ضرورة لتماسك الأفراد بعضهم ببعض .. فمبدأ الإعداد للقتال ، والمباشرة الفورية لرد العدوان ضرورة لبقائه ، ككل : على معنى إذا ضعفت المشاركة من الأفراد وتقاعدوا عن مباشرة واجبهم فى وقاية أمتهم من أعدائها .. فالنتيجة اللازمة : هى تغيير مجتمعهم وزواله . وهذا هو معنى : استبدال الله قوما آخرين غير القائمين فى المجتمع ، حال تخاذلهم وتقاعدهم عن القتال ، ذلك الاستبدال الذى جاء فى قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، (أى تباطأتم عن الاستجابة) **أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ،**

---

(٦٤) الممتحنة : ٨ ، ٩
(٦٥) الأعراف : ١٩
(٦٦) هود : ١١٨ ، ١١٩

(أى أرضيتم بالاستمتاع بماديات الحياة الدنيا ، ومنها الحرص على حياتكم بعدم الخروج للقتال .. بدلا من الحرص على سلامة القيم العليا التى يلتف حولها المجتمع المؤمن بالله ، والتى تؤدى المشاركة فى صيانتها إلى نعيم الآخرة وجزاء الله فيها ؟) **فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل • الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما** (أى فى دنياكم بالمذلة لكم من أعدائكم) **ويستبدل قوماً غيركم** (هم أحرص منكم على سلامة الإيمان بالله) **ولا تضروه شيئا** (بقبولكم المذلة .. ثم بذهاب مجتمعكم) **والله على كل شىء قدير))** (٦٧) ..

● وفى العلاقة بالمجتمعات الأخرى :

وتقوم علاقة المجتمع الإسلامى مع المجتمعات الأخرى — وهى مجتمعات الإلحاد والوثنية المادية . ومجتمعات أهل الكتاب — على الحذر والحيطة فى تقبل المشورة .. وعلى عدم الموالاة ، وفى الوقت نفسه : على عدم الاعتداء . لأن عداوة المجتمعات الأخرى للمجتمع الإسلامى عداوة باقية ، ولم تزل تتطلع هذه المجتمعات إلى سقوط المجتمع الإسلامى أو إلى ضعفه على الأقل : ((**ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه** (أى من القرآن) **حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم • الملك يومئذ لله))** (٦٨) ..

فالحذر والحيطة فى تقبل مشورة أهل الكتاب يدل عليها قوله تعالى : ((**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير))** (٦٩) .. (أى على من يقبل مشورتهم من المجتمعات الإسلامية أن يتحمل عاقبة أمرها . وهى عاقبة المذلة . والانحدار إلى الفناء . وساعتئذ ليس هناك صديق يساعد ولا نصير يعين على الخروج من الشدائد) ..

والحذر والحيطة فى تقبل مشورة الملحدين يؤخذان من عداوتهم البغيضة

---

(٦٧) التوبة : ٣٨ ، ٣٩ (٦٨) الحج : ٥٥ ، ٥٦
(٦٩) البقرة : ١٢٠

لكتاب الله وقرآنه ، على نحو ما جاء فى قول الله تعالى : **« والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو** (أى القرآن) **عليهم عمى »** (٧٠) . وجاء التعبير صريحا عن قبول مشورتهم فى قول القرآن الكريم : **« فلا تطع الكافرين وجاهدهم به** (أى القرآن) **جهاداً كبيراً »** (٧١) ..

أما عدم اتخاذ المؤمنين : غيرهم أصدقاء وأولياء ، فالنهى عن اتخاذ ذلك تقصه مثل هذه الآية الكريمة : **« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين »** (٧٢) ..



وفى إطار الهدف الرئيسى للقرآن ــ موزعا على هذه الجوانب الثلاثة : جانب مقاومة الوثنية المادية .. وجانب تصحيح التحريف الذى باشره أهل الكتاب فى رسالة الله .. وجانب بناء المجتمع الإسلامى : فى أصول حكمه ، وفى أخلاقياته فى السلوك والمعاملة ــ يدور التفسير الموضوعى للقرآن ككل ، بين الإجمال والتفصيل فى تحديد هدفه . يمكن عندئذ أن يعرض كل جانب من هذه الجوانب ، مستوفيا وملما بما جاء به القرآن فى آياته كلها . بحيث يصح أن يكون دستوراً ينطوى على مبادئه فى الجانب المقصود فى يسر ، وفى غير تطويل .



● **هدف كلّ سورة على حدة :**

وبجانب استخلاص هدف القرآن ــ ككل ــ من سوره المكية ، والمدنية .. واستخلاص ما لكل جانب من جوانب هذا الهدف ، مستقلا بعد ذلك .

وهنا نعرض لبعض النماذج فى استخلاص المطلوب من بعض السور المكية : وهى سورة « الأنعام » هنا . وذلك المطلوب هو ما تستهدفه السورة أولا وبالذات ، يضاف إليه : ما يستخدمه القرآن فى السورة من

---

(٧٠) فصلت : ٤٤
(٧١) الفرقان : ٥٢
(٧٢) المائدة : ٥٧

تاريخ البشرية فى مجتمعاتها .. أو ما يعد به الله من نعيم ، أو عقاب : للمطيع على طاعته ، وللعاصى على عصيانه وإثمه أو جريمته .

● سورة الأنعــام :

.. فسورة الأنعام تحرص فى الدرجة الأولى على تحريم تدخل السلطة القائمة : دينية .. أو سياسية ، فى الأموال الخاصة باسم الله ، أو بأى اسم آخر (كاسم الشعب أو الأمة) والاعتداء على حرمتها ، لمنفعة شــخصية من وراء ذلك ، تعود على ممثلى تلك السلطة .

والسلطة القائمة إذ ذاك فى مكة : كانت سلطة دينية .. سلطة الكهان . والكهان كانوا يمثلون الطبقة الوسطى ، التى تلى الطبقة العليا فى معــرفة غيب السماء ، وهى طبقة شياطين الجن . فكان يدعى : أن هؤلاء الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء الدنيا فى حديث الله مع الملائكة ، ثم ينقلون ما يسمعون إلى الكهان . وجاء أدعاء هؤلاء فى نقلهم علم الغيب عن أولئكم فى قول الله تعالى :((**وأنــه كان رجــــال من الانس** (وهم الكهان) **يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً**)) (٧٣) ..

والكهان بدورهم يمارسون مع العامة ، وهى الطبقة الدنيا : حرفتهــم بما يدعى من علم الغيب ، وينسبونه كذبا إلى الله سبحانه من : حل هــذا .. وتحريم ذاك ، مما يجرى فى حياتهم . وبالأخص فيــما يتصــل بثروتهــم الحيوانية ، والزراعية . وهى ثروة تمثل الاقتصاد القومى لمجتمعهم فى ذلك الوقت . ونظيرها ــ ويأخذ حكمها ــ كل ثروة أخرى يعتمد عليها المجتمع البشرى فى أى وقت وعهد ، كالثروة الصناعية والتجــارية فى المجتمعــات المتطورة المعاصرة .

وقد واجهت سورة الأنعام هؤلاء الكهان بحقيقة احترافهم بالكهانة .. ومدى ما ينتظرهم من جــزاء على سوء صنيعهم ، والكذب فيه ، فى قول الله تعالى : ((**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى الى ولم يوح**

---

(٧٣) الجن : ٦ ، ٧

اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون)) (٧٤) ..

ثم أخذت السورة توضح صور تدخلهم فى الأموال الخاصة فى المجتمع المكى إذ ذاك . فذكرت :

ـ فرضهم نصيبا معينا فى أموال أتباعهم : يؤخذ منها ليعود إليهم وحدهم ، تحت ستار : إنه لله مرة .. وإنه لأصنامهم مرة أخرى : ((**وجعلوا لله مما ذرأ** (أى خلق) **من الحرث** (الثروة الزراعية) **والأنعام** (والثروة الحيوانية) **نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا** ، (أى أصنامنا) **فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله** ، (وإنما يصل إليهم هم لأنهم القائمون على خدمتها) **وما كان لله فهو يصل الى شركائهم** ، (أى كذلك يصل إليهم أنفسهم) **ساء ما يحكمون)) (٧٥) ..**

ـ وحجرهم على نوع معين من الثروة الحيوانية .. ونوع آخر من المحاصيل الزراعية ، بحيث لا يباح تناوله ولا الطعام منه إلا لمن يأذنون له منها **بذلك : ((وقالوا هذه أنعام وحرث حجر** (أى موقوف التصرف فيها) **لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم)) (٧٦) ..** (ويعنون خدم الأوثان .. والرجال دون النساء))) .

ـ وتحريمهم استخدام نوع معين من الأنعام : فلا يركب .. ولا يحلب دره .. ويطلق فلا يمنع من الماء والمرعى **((وأنعام حرمت ظهورها)) (٧٧) ..** وهذا النوع ثلاث فصائل :

الفصيلة الأولى : البحيرة . وهى الناقة التى يشق أذنها ، بعد أن تنتج خمسة أبطن ، آخرها ذكر .

الفصيلة الثانية : السائبة . وهى الناقة التى تطلق ولا تقيد ، ولا تمنع عن المرعى والماء ، إن عاد صاحبها سالما من سفر .. أو خرج من مرض ذا نقاهة . وقد وعد بها ، إن عاد من سفره سالما .. أو شفى من مرضه .

---

(٧٤) الأنعام : ٩٣
(٧٥) الأنعام : ١٣٦
(٧٦) الأنعام : ١٣٨
(٧٧) الأنعام : ١٣٨

الفصيلة الثالثة : الحام . وهو الفحل الذى أنتجت منه الأنثى من الحيوان : عشرة أبطن . فيقال له : الآن قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ، ولا مرعى .

وجاء توضيح افتراء الكهان فى هذا المنع والتحريم لهذه الفصائل الثلاثة من النعم ، فى قول الله تعالى : **((ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون)) (٧٨) ..**

.. وعدم ذكرهم اسم الله على ما يذبح من الأنعام ، وذكر اسم أحد الأصنام بدلا من المولى جل جلاله ، حتى يكون أكل ما يذبح وقفا على خدمة الصنم الذى ذكر اسمه عليه : **((وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون)) (٧٩) ..**

.. وقصرهم حل ما فى بطون البحار والسوائب — إن خرج حيا — على الذكور وحدهم دون نسائهم . فإن خرج ميتا فجميعهم شركاء فيه :

((وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام (من البحار والسوائب) **خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا ، وان يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ،** (أى قولهم هنا : بالحل والتحريم على النحو المبين) **انه حكيم عليم)) (٨٠) .**

وقد عقب القرآن على صنع هؤلاء الكهان ، وقبول أتباعهم لصنيعهم بقوله : **((قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم** (وهذه جريمة كانوا يرتكبونها بناء على توصية الكهان لهم خشية الفقر .. أو سبى أولادهم فى الحرب فيما بينهم .. على نحو ما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى هذه السورة : **((وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم** (أى ليحطموهم وينهوا وجودهم) **وليلبسوا عليهم دينهم)) (٨١)** (وليخلطوا عليهم الأمر فى شئون توجيههم .) **وحرموا ما رزقهم الله**

---

(٧٨) المائدة : ١٠٣

(٧٩) الأنعام : ١٣٨

(٨٠) الأنعام : ١٣٩

(٨١) الأنعام : ١٣٧

(من الحرث والأنعام على النحو السابق) **افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (٨٢) ..**

.. ثم أوضح الحلال والحرام فيما يحصل من الثروة الزراعية . .أو يقتنى فى الثروة الحيوانية ، فقال فى شأن الثروة الزراعية : **« كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » (٨٣) ..** فنصح فيه بثلاثة أمور :

الأمر الأول : برفع الحظر عن الاستمتاع بصنوف ما يزرع ويثمر منها **« كلوا من ثمره اذا أثمر » .**

الأمر الثانى : إخراج حق أصحاب الحاجة منه ، تحقيقا للمنفعة العامة للمال : **« وآتوا حقه يوم حصاده » ..**

الأمر الثالث : عدم الإسراف فى الاستمتاع به ، كى تتحقق بالإعتدال فيه : فضلة تعود على أصحاب الحاجة .

الأصل اذن : هو الحل فى الاستمتاع بأصناف المزروعات .. والاعتدال فيما يؤكل ويستمتع به منها .

.. وقال فى شأن الثروة الحيوانية : **« قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين ، ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، أن الله لا يهدى القوم الظالمين . قل لا اجد فى ما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » (٨٤) ..** فيستنكر القرآن : أن يكون هنا محرم من الأنعام على طاعم يطعم منها ، إلا أن يكون ميتة .. أو دماً مسفوحاً .. أو لحم خنزير .. أو لم يذكر عليه عند ذبحه اسم الله . كما يرخص عند الضرورة : الأكل من هذه الممنوعات بقدر الحاجة : **« فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » .**

.. كما نقل (القرآن) الحل .. والحرمة من مجال الملكية الخاصة فى الثروة القومية (وهى الثروة الزراعية ، والحيوانية) .. إلى مجال العلاقات

---

(٨٢) الانعام : ١٤٠ (٨٣) الانعام : ١٤١

(٨٤) الانعام : ١٤٤ ، ١٤٥

الاجتماعية . لأن التدخل فى الملكية الخاصة يبدو فيه الانحراف فى التوجيه .. والرغبة فى تحصيل المنفعة الخاصة ، ممن بيده سلطة الحل والحرمة . أما التدخل فى تنظيم العلاقات بين الأفراد ، بما يحفظ عليها التماسك والبقاء فى قوة .. والصفاء فيها : فإنه يستهدف لا محالة : الإصلاح .. والمصلحة العامة التى تعود على كل فرد بالخير . فيقول بعد التعقيب على صنع الكهان ، وجهالة المجتمع المكى الوثنى : « **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، الا تشركوا به شيئاً** ، (لأن الشرك بالله هدر لكرامة الفرد .. ودعوة إلى قسمة المجتمع إلى مجموعات وطوائف) .

« **وبالوالدين احساناً** ، (لأن الإحسان إلى الوالدين تعبير من الأولاد عن معنى الإنسانية الذى يتملكهم الآن) ،

« **ولا تقتلوا اولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم** ، (لأن فى قتل النفوس الصغيرة البريئة : تخليا أولا عن المسئولية الإنسانية التى توضع على الآباء لصالح الأولاد .. ومظهراً ثانيا ينم عن البربرية التى تدفع إليه) .

« **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ، (لأن ارتكاب الفواحش — وهى الجرائم الاجتماعية ، كجريمة انتهاك العرض .. وسرقة المال — من شأنه أن يثير الاضطراب ، ويزيد من الحقد فى العلاقات بين الأفراد . والاضطراب والحقد فى العلاقات الاجتماعية من أشد العوامل فتكا فى تقويض المجتمع) .

« **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** » (٨٥) (إذ فى قتل النفس التى لم يكن قتلها فى قصاص مثلا : اعتداء واضح على المجتمع نفسه ، يجب تجنبه بكل وسيلة ، إذا أريد لهذا المجتمع أن يبقى فى صفاء .. وفى تماسك) .

« **ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ أشده** ، (فالمحافظة على مال اليتيم — وهو الضعيف بنفسه — أمارة على رشد الإنسان فى إنسانيته ، عندما يتولى أمر هذا الضعيف) .

---

(٨٥) الانعام : ١٥١

« **وأوفوا الكيـل والميزان بالقسـط ، لا نكلف نفسـاً الا وسـعها** » (والعدل فى المعاملة حسب الطاقة البشرية : أساس فى عدم تفكك المجتمع .. وفى عدم حقد الأفراد بعضهم على بعض) .

« **واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** » (وتجنب الزور فى الشهادة .. واللغو فى الحديث .. والكذب والافتراء فى النقل والرواية : ليس دليـلا فحسب على إنسانية الإنسان الشاهد ، والمتحدث ، والحاكى . وإنما هـو وسيلة لرفع البغضاء فى علاقات الأفراد مع بعضهم) .

« **وبعهد الله أوفوا** » (٨٦) .. (وعهد الله هو كل عهد لا يستهدف إلا الخير والمصلحة العامة .. كل عهد لا ينطـوى على الشر ، والإيـذاء ، والانتقام من أحد لحساب أحد . والوفاء به هو أمارة من أمارات النضـج فى المعاملات المتبادلة) .

.. فالقرآن إذ يبعد تدخل السلطة القائمة فى الأموال الخاصة لغير مصلحة عامة .. يطلب ــ فى أمر .. وفى نهى ــ تنظيـم العـلاقات بين الأفـراد فى الأسرة ، وفى المجتمع ، للبقاء على تماسك هذه العـلاقات فى قوتهـا وفى صفاتها .

فهو يطلب فى تنظيم الأسرة : الإحسان إلى الوالدين .. ورعاية الأولاد : بتجنب قتلهم خشية الفقر .. أو السبى فى حرب .

ويطلب فى تنظيم علاقات المجتمع : عدم الاعتداء على الآخرين بالقتل أو بانتهاك العرض .. أو بسرقة الأموال .

.. كما يطلب صيانة مال الضعيف ، عند مباشرة الوصاية على ماله .. والعدل فى المعاملات المالية والتجارية .. والعدل فى القـول والشـهادة .. والوفاء بالعهد ، إذا استهدف العهد تحقيق مصلحة عامة ، وهو عهد الله .

.. ويطلب قبل هذا كله : عدم الشرك بالله . لأن فى الشرك بالله سقوطا بالإنسان إلى مستوى أدنى من الأصنام إذا عبد أصناما .. وأدنى من الإنسان ذاته ، إذا اتجه بالخضوع والعبادة لإنسان ما : رسول أو غير رسول .

---

(٨٦) الأنعام : ١٥٢

وإذا سقط الإنسان عن مستوى إنسانيته لا يستطيع أن يكون أسرة ، ولا أن يكون عضواً فى مجتمع إنسانى متماسك .

ولذا : تسمى سورة الأنعام . هذا التنظيم فى علاقات الأسرة ، والمجتمع معاً . بالصراط المستقيم : **« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٨٧) ..**

* * *

وبجانب هذا الهدف الرئيسى للسورة : ذكرت ما تعود القرآن أن يذكره فى السور المكية كلها ، أو بعضها — من :

— إعلان أن القرآن دعوته للهداية ..

— ومن تصورات الوثنيين الماديين لأسباب رفضهم لدعوة القرآن ..

— ومن توضيح قدرة الله على تغيير المجتمع : من وضع وثنى مادى .. إلى وضع إنسانى فى الدنيا ، مع الاستشهاد بتاريخ المجتمعات السابقة .

— ومن تطمين الرسول على نجاح دعوته ، رغم شدة المعارضة ، وقسوة المواجهة لدعوته ..

— ومن المسئولية الفردية فى الانحراف ، والتمادى فى المعارضة ، لكل منحرف ومصر على انحرافه ..

فالقرآن يعلن دعوته فى قول الله تعالى : **« وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون » (٨٨) ..**

وهى دعوة تنطوى على ثلاثة أهداف :

أولا : إن رسالة القرآن هى رسالة الإسلام فى كل كتاب سماوى .. هى رسالة الله للإنسان على الأرض وفى هذه الحياة الدنيا .

ثانياً : إنها تستهدف تصحيح الوضع البشرى فى شبه الجزيرة أولا ،

---

(٨٧) الأنعام : ١٥٣ — (٨٨) الانعام : ٩٢.

وهو الوضع المادى فى مجتمعها ، كنقطة بداية لتصحيح المجتمع العالمى كله ونقله إلى وضع إنسانى سليم .

ثالثاً : تطمين الرسول عليه السلام : أن الذين سيؤمنون بالقرآن هم أولئكم الذين يؤمنون بالآخرة ، وبالبعث .. أى أولئكم الذين لم يقعوا تحت تأثير الاتجاه المادى فى سلوكهم ، وفى مواقفهم ، فيقفوا بالسلوك والمواقف : عند حد الدنيا وحدها ، وإنكار الآخرة . ومعنى ذلك .. أن المكيين ــ وهم وثنيون ماديون ــ ليسوا موضع أمل كبير للإيمان بالقرآن .

.. كما يعلنها فى قوله : **((قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين)) (٨٩) ..**

وفى الوقت الذى يعلن القرآن فيه دعوته هذه على النحو الذى تحددت به هنا .. يرفق إعلانها : بأنها بعيدة كل البعد عن الخداع .. أى بأنها موضوعية ومجردة عن كل شائبة لا تتصل بالواقع بصلة :

((قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم انى ملك ، ان اتبع الا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، افلا تتفكرون)) (٩٠) ..

.. فهو عليه السلام ــ وهو صاحب الدعوة ــ لا يمتلك المال لتوزيعه على الأتباع .. وليس هو فى طبيعته فوق البشر ، حتى يدعو تميزه إلى إقبال الناس عليه .. وليس إلا إنسانا يتبع ما يوحى إليه من ربه : فى تبليغه .. وفى الاهتداء به كقدوة مثلى .

.. كما يقص ــ أى القرآن ــ بعض الأسباب التى يتصورها ويعبر عنها الماديون المكيون : لرفض القرآن . فيقول : **((وقالوا لولا انزل عليه ملك ،** (أى هلا كان معه ملك يدعم رسالته من عند الله . إذ أنهم كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله وجعلوا بينها وبين الله نسبا : **((وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة انهم لمحضرن)) (٩١) ..) ولو انزلنا ملكاً لقضى الأمر**

---

(٨٩) الانعام : ١٦١
(٩٠) الأنعام : ٥٠
(٩١) الصافات : ١٥٨

ثم لا ينظرون » (٩٢) (أى ولكن نزول الملك هو إعلان على انتهاء الحياة الدنيوية . ومن ثم لا تكون لهم فرصة للإيمان والعمل به) .

ويقول أيضا : « **وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ،** (أى هلا نزلت عليه أمارة مادية تؤيد صدق رسالته ، كالتى نزلت على موسى ، أو عيسى من قبل) **قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون »** (٩٣) ..

.. ويقول كذلك — منكرين بشرية الرسول — :

« وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » (٩٤) ..

.. وفى بداية السورة .. وفى نهايتها أيضا ، يوضح القرآن مدى قدرة الله على تغيير المجتمع . فيقول فى أول السورة : « **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن** (أى مجتمع) **مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم** (فكانت لديهم مصادر عدة للقوة والسيادة) **وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم** (ومن هذه المصادر العديدة للقوة : كان الرخاء فى العيش ، ويسر الحصول على الرزق ، بسبب وفرة المياه لرى الزراعة .. وتربية الحيوان .. وشرب الإنسان) **فأهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرناً آخرين »** (٩٥) (أى جيلا ومجتمعا آخر على النقيض من سابقه فى السلوك وعبادة الله وحده) .

.. ويقول فى آخرها : « **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم »** (٩٦) ..

.. فبينما القرآن يريهم فى أول السورة : أن الاعتماد على القوة المادية لا تغنى المجتمع عن سقوطه ، إذا ظل زعماؤه يرتكبون الفحشاء والمنكر ، ويسلكون طريق العبث والفساد ، ويكذبون بالقيم الإنسانية العليا ، التى تمثلها رسالة الله . .إذا به فى آخرها يذكرهم بأنهم خلفاء لأجيال سبقتهم ..

---

(٩٢) الانعام : ٨
(٩٣) الانعام : ٣٧
(٩٤) الانعام : ٩١
(٩٥) الانعام : ٦
(٩٦) الانعام : ١٦٥

وأنهم الآن موضع اختبار : فى طاعتهم ، أو فى عصيانهم له ، فيما أعطى لهم من نعم ، وبالأخص نعمة المال والجاه .. وعليهم من أجل ذلك أن يعيدوا النظر فى موقفهم من القرآن والإيمان به .

.. وفى جانب تطمين الرسول عليه السلام يقول سبحانه :

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، (أى لقضائه ولإرادته التى تعبر عنها كلمات الله فيما يعد به رسله من النصر والتأييد) **ولقد جاءك من نبأ المرسلين »** (٩٧) .

.. ثم عدد القرآن من الرسل من ساقهم فى قوله : **« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته** (أى ذرية إبراهيم) **داوود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس ، كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه** (أى على القرآن) **أجراً ، ان هو الا ذكرى للعالمين »** (٩٨)

.. وطلب منه الاقتداء بالسابقين من الأنبياء والرسل . وطالما هو عليه السلام لا يأخذ أجراً على دعوته .. فليس هناك ما يعوقه عن استمراره فيها ، رغم ما يواجهه من معارضة ورفض لها .

.. والمسئولية الفردية قد أعلنها فى قوله تعالى : **« ولا تكسب كل نفس الا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى »** (٩٩) ..

* * *

وبالتفرقة بين الجو المكى للسورة ــ أية سورة ــ الذى تحدده العناصر السابقة ، وهو جو يتكرر بصورة أو بأخرى فى السور المكية ، ويعد طابعا

---

(٩٧) الانعام : ٣٤

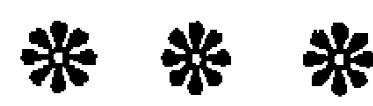
(٩٨) الانعام : ٨٣ ــ ٩٠

(٩٩) الانعام : ١٦٤

لها بوجه عام ... وبالأمر الخاص الذى يبدو مميزاً فيه سورة عن سورة : يتضح الهدف المقصود من السورة .. مثل ذلك الهدف الذى سقناه هنا فى سورة الأنعام : وهو منع التدخل فى الأموال الخاصة من السلطة القائمة . فإنه كان من العرف الشائع فى المجتمع المكى ، ونظيره يحدث فى كل مجتمع مادى ، على نحو إلغاء الملكية الخاصة فى المجتمع الماركسى الاشتراكى. وهو مجتمع وثنى مادى .

فإن عرف هدف كل سورة .. وعرف مع ذلك الهدف العام لرسالة القرآن ، عن طريق التفسير الموضوعى للقرآن : كان من اليسير تخطيط حياة الإنسان على أسس موضوعية تكون الأصول العامة لسياسة الحكم فى الإسلام .. وللأخلاق فى السلوك .. وللموقف فى العلاقات الدولية .

وليس معنى استخلاص الهدف الرئيسى من كل سورة ، عن طريق التفسير الموضوعى ، هو أن لا تفسر الآيات تباعا ، وأن لا توضح الكلمات الغريبة فيها ، بل معناه : بجانب هذا النوع من التفسير الذى درج عليه المفسرون : يمكن استخلاص الهدف الموضوعى ، كما أشرنا . وبذلك لا يضيع القارىء بين أسطر التفسير المجزأ . وبالأخص ذلك الذى لم تتكون لديه الدربة على مراجعة الأسلوب التقليدى ، رما يصحبه من جولان ورحلات فى فروع الثقافة العربية المختلفة . ثم جانب آخر يتضح : إعجاز القرآن فى موضوعيته .. وفى ملاءمته للطبيعة الإنسانية .



● سورة الشعراء :

وعلى غرار سورة الأنعام : نعرض لسورة الشعراء أيضا ، كسورة مكية ، وبقراءة سورة الشعراء يبدو واضحا : أن الهدف من السورة . رفض القرآن لأمرين ادعاهما الوثنيون الماديون بمكة ، تأثراً بما هم يعيشون فيه من خرافة واعتقاد باطل :

أولا : يرفض كتاب الله أن يكون القرآن على نمط الكهانة : يدعى فيها استراق السمع من غيب السماء .. وأن الذى يباشر السمع هم مردة

الشياطين . فيقول تعالى : « **وما تنزلت به الشـياطين** » (أى وليست لهم صـلاحية إطلاقاً أن ينـزلوا به) **وما ينبغى لهم وما يسـتطيعون** » (أى وفى الوقت التى تنتفى لديهم الصلاحية للنزول به .. هم لا يستطيعون كذلك أن ينزلوا به . فإذا فقدت الشياطين الصلاحية جملة .. وفقدت القدرة والطـاقة على مبـاشرة إنـزاله : فقـد تأكد أنهـم لم ينـزلوا به) **انهم عن السمع لمعزولون** » (١٠٠) .. ويضاف إلى عـدم صلاحيتهم .. وعدم قدرتهم : عزلهم عن سماع الغيب من السماء ، عـزلا تاماً ومؤكداً . وبهذا : يصبح القرآن وحيا من عند الله ، أرسل به رسول إلى المصـطفى المختار محمد بن عبد الله عليه السلام .. وليس نمطا من أنماط الكهانة التى يعيشون فى ظلها .

.. على أنه من جانب آخر . أن الشياطين ــ وهم أشرار الموجودات ــ لا تتصل إلا بالأفاكين الكذابين . ومحمد بن عبد الله عليه السلام : عـرف بالصـدق ، والأمانة بين العـرب المكيين على وجه أخص : « **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين • تنزل على كل أفاك أثيم • يلقون السمع** (أى هـؤلاء الأفاكون يلقون ما بسمعهم إلى غيرهم من الشياطين المردة ، كى ينقلوا عنهم) **وأكثرهم كاذبون** » (١٠١) .. (ومع أنهم يلقون بالسمع إلى الأشرار .. فهم فى أغلبيتهم كاذبون .. أى إنهم إذا سمعوا من شـياطينهم كذبا ــ منسوبا إلى غيب السماء ــ فإن أغلبهـم أيضا لا يتـورع أن يضيف إلى ما سـمع من كذب : كذباً آخر من عند نفسه) .

وبتوضيح هـذا الواقع ينجلى : أن طابع الكهانة بعيـد كل البعد عن القرآن ، الذى هو وحى الله ، نزل به جبزيل إلى محمد عليه السلام .. كما يتجلى كذب الخرافة ــ من ناحية أخرى ــ التى كانت شائعة بين أصـحاب السلطة الدينية بين المكيين . وهى أن الكهانة نوع من غيب الله ، جاء به رجال من الجن ، كان يلوذ بهم نفر من الكهان . إذ أن الجن معزولون عزلا تامـاً عن عـلم الغيب : « **انهم عن السمع لمعزولون** » .. « **فلما قضـينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** » (١٠٢) ..

---

(١٠٠) الشعراء : ٢١٠ ــ ٢١٢ (١٠١) الشعراء : ٢٢١ ــ ٢٢٣

(١٠٢) سـبا : ١٤

ثانياً : يرفض كتاب الله أيضا : أن يكون القرآن نمطا من أنماط الشعر .. أى يرفض أن يكون منطويا على كذب الشعراء وخداعهم ، فيقول :

« **والشعراء يتبعهم الغاوون** . (أى الضالون والحائرون . لأنهم يقولون فى الشيء : وصفا معينا ، ثم يتبعونه بوصف مضاد له . والحقيقة إذن ضائعة بين الضد .. وضده) **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا** » (١٠٣) .. (من أمثال عبد الله بن رواحة .. وحسان ابن ثابت .. وكعب بن مالك .. وكعب بن زهير) .

.. وبإبعاد طابع الكهانة . وطابع الشعر عن القرآن : يصبح القرآن كتاب حقائق .. وكتاب صدق من عند الله .

.. وبالإضافة إلى الهدف المميز فى سورة الشعراء : تذكر السورة أيضا — كسورة مكية — ما تعودت السور المكية أن تذكره ، بجانب الهدف الرئيسى للسورة ، من :

.. إعلان القرآن دعوته للهداية . كما جاء فى قول الله تعالى هنا : « **وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين . وانه لفى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقراه عليهم ما كانوا به مؤمنين** » (١٠٤) .. وكما جاء فى قوله : « **فلا تدع مع الله الهاً آخر فتكون من المعذبين . وانذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** » (١٠٥) ..

.. ومن توضيح قدرة الله على تغيير المجتمع .. مع الاستشهاد بأحداث التاريخ على هذا التغيير . فقد جاء فيها قول الله جل جلاله : « **كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين** . (أى على نحو عدم إيمان المجتمعات السابقة برسالة رسلهم : استقر فى قلوب المكيين — بسبب إجرامهم — أنهم لا يؤمنون بالقرآن رسالة محمد ، مهما كانت الآيات الدالة على وجوب الإيمان به) **لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم . فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون .**

---

(١٠٣) الشعراء : ٢٢٤ — ٢٢٧
(١٠٤) الشعراء : ١٩٢ — ١٩٩
(١٠٥) الشعراء : ٢١٣ — ٢١٥ .

فيقولوا هل نحن منظرون . افبعذابنا يستعجلون . أفرأيت ان متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين)) (١٠٦) ..

وقد قصت السورة ـ مع تأكيد الله تغييره لمجتمع العابثين : ((**وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون**)) ـ من أحداث التاريخ : ما تستشهد به : على أن ما سيقع لزعماء المكيين الوثنيين الماديين من تغيير ، قد وقع من قبل ، لمجتمعات عديدة ، عارضت رسلها بالباطل : قصت أنباء مجتمعات سبعة سبقت المجتمع المكي .. قصت :

مجتمع موسى : من الآية العاشرة .. إلى الآية الثامنة والستين .

ومجتمع إبراهيم من الآية التاسعة والستين .. إلى الآية الرابعة بعد المائة .

ومجتمع نوح : من الآية الخامسة بعد المائة .. إلى الآية الثانية والعشرين بعد المائة .

ومجتمع هود : من الآية الثالثة والعشرين بعد المائة .. إلى الآية الأربعين بعد المائة .

ومجتمع صالح : من الآية الحادية والأربعين بعد المائة .. إلى الآية التاسعة والخمسين بعد المائة .

ومجتمع لوط : من الآية الستين بعد المائة .. إلى الآية الخامسة والسبعين بعد المائة .

ومجتمع شعيب : من الآية السادسة والسبعين بعد المائة .. إلى الآية الحادية والتسعين بعد المائة .

.. ثم أردفت هذه المجتمعات بمجتمع الرسول عليه السلام : ابتداء من الآية الثانية والتسعين بعد المائة .

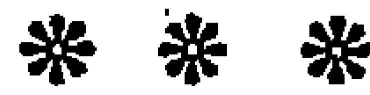
.. ومن تطمين الرسول عليه السلام . فذكرت قول الله تعالى :

---

(١٠٦) الشعراء : ٢٠٠ ـ ٢٠٩

« **لعلك باخع نفسك**(أى قاتل نفسك حزنا وأسفا) **الا يكونوا مؤمنين . ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية** (أى مادية ، كما يطلبون) **فظلت أعناقهم لها خاضعين .** (أى من شأنها : أنهم لا يستطيعون إزاءها إلا التسليم والإذعان) **وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين** » (١٠٧) .. (ولكنهم جبلوا على المعارضة والكفر بما يأتى به وحى الله . والأمر إذن ليس أمر إقناع بآية مادية أو بأخرى . وإنما الأمر أمر عناد .. وصلف .. ومصلحة خاصة فى المعارضة والتولى عن هداية الله) ..

.. وأخيراً من ذكر المسئولية الفردية عن الانحراف ، والتولى عن دين الله . فقد جاء فى هذه السورة قوله سبحانه : « **فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم** » (١٠٨) ..(أى فمسئولية عصيانهم لا تقع عليك أنت ــ أيها الرسول صلوات الله عليك ــ وإنما تقع عليهم وحدهم ، وهم المتحملون لها) .. وجاء قوله كذلك : « **وسيعلم الذين ظلموا** (أى بسبب رفضهم الإيمان) **أى منقلب ينقلبون** » (١٠٩) ..



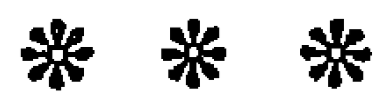
وعلى هذا النحو من طريقة التفسير يستعين القارىء على استخلاص أهداف السورة المكية .. ثم الأخرى المدنية .. ويصل بذلك إلى الهدف العام للقرآن الكريم . وهو :

ــ مقاومة الوثنية المادية . وقد عرفت بمظاهرها .. وبعقيدتها ..

ــ وتصحيح تحريف أهل الكتاب ، فيما جاءت إليهم من رسالة ..

ــ وأسس قيام المجتمع الإسلامى .. وبقائه . فى عزة ورفعة .

.. ويصبح بالتالى من غير العسير على المؤمن القارىء لكتاب الله : أن يتعلم منه مباشرة طريق هدايته فى السلوك .. وفى المعاملة .. ويؤمن صدقا بأنه كتاب من عند **الله .**



---

(١٠٧) الشعراء : ٣ ــ ٥
(١٠٨) الشعراء : ٢١٦ ، ٢١٧
(١٠٩) الشعراء : ٢٢٧

الفصل الثانى

القرآن .. والتحديات
بين الأمس .. واليوم

● **التحديات الفكرية والعقائدية للقرآن فى الماضى ـ تحديات الوثنية المادية :**

.. واجهت الدعوة الاسلامية ــ وهى دعوة لتنظيم الاستمتاع بالحياة المادية التى يعيشها الإنسان على الأرض ، على أساس أخلاقى ، وفى رعاية لكرامة الإنسان ، تحقيقا للعدل الاجتماعى بين الأفراد جميعا ــ واجهت وهى بمكة : تحديات الوثنية المادية ،أو تحديات الشرك ،واتهامات الماديين للقرآن بأنه : سحر وخداع .. وبأنه أساطير الأولين اكتتبها الرسول عليه السلام .. وبأنه أضغاث أحلام يصعب تفسيرها .. وبأنه مؤلف ومتقول ، ونسبت افتراء إلى وحى الله .

.. كما واجهت اتهام هؤلاء الماديين ، أو المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنه : كاهن .. ومجنون .. وشاعر .. ومسحور ــ أى معلل بالأكل والشرب ــ وبشر ، وليس بملك .. وأنه ليس من الأثرياء ، ولا من العظماء والزعماء .. وأنه تعلم القرآن ونقله عن غيره .

.. وأخيراً واجهت سوء تصورهم لله على أنه ، سبحانه ، جل جلاله :

يلد وينسل ، وأن الملائكة بنات له وأن له شركاء من الجن .. ومن الأصنام .. وأنكروا وحدته فى الألوهيــة .. كما أنكروا البعث واليوم الآخـر .. وحرموا ما أحله الله ، استغلالا للأموال الخاصة ، لمصالح كهانهم وأصحاب الرياسة الدينية فيهم .

وقد تكفل القـرآن الكريم فى الســور المكية فيــه بالرد على هــذه الادعاءات . ومن قراءتها جميعها تحدد الاتهامات . ومنهج رفضها ونقضها . وسورة الطور تشير إلى كثير مما وجه إلى الرسول عليه السلام ، وإليــه سبحانه ، وإلى رفضه وإنكاره فى صورة تحد أو سخرية واستهزاء فى قول الله تعالى :

« فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فانى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثــله ان كانوا صــادقين . أم خلقوا من غــير شىء (أى من غــير خالق) **أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون . أم لهم سلم يستمعون فيه ، فليأت مستمعهم بسلطان مبين .**(أى بحجة واضــحة)**أم له البنات ولكم البنون . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب**(عن طـريق الرســالة إليهم) **فهم يكتبون . أم يريدون كيداً ، فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم اله غير الله ، سبحان الله عما يشركون . وان يروا كسفاً من السماء ســاقطاً يقولوا سحاب مركوم . فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون »** (١) ..

.. فهذه السورة تشير إلى ادعائهم بالنسبة للرسول عليه السلام : بأنه كاهن .. ومجنون .. وشاعر ، وإلى وصفهم القرآن : بأنه متقول ومؤلف له ، ونسب إلى الله كذبا ، وإلى وصفهم الله بأنه يلد .. وله شركاء من غيره .

ولتأكيــد أن هــذه الاتهامات اســتهدفت من جانب هــؤلاء الماديين والوثنيين : الكيد للرسول عليه السلام .. كما استهدفت تجميد دعــوته ، نصحه القرآن ــ عليه الســلام ــ بأن ينصرف عنهــم ويستمر فى دعــوته : **« فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون »** .. وذلك بعد أن أكد

---

(١) الطور : ٢٩ ــ ٤٥

له : أنهم هم أنفسهم الذين سيصابون وحدهم بأضرار كيدهم : **« فالذين كفروا هم المكيدون »** ..

وتصدرت سورتا : المائدة ، والأنعام ، بوجه خاص للرد على افتراءات الكهان فى الحل والحرمة فى أموال الناس . على نحو قول الله تعالى : **« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون »** (٢) ..

وقوله : **« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون »** (٣) ..

* * *

● تحديات العقائد والمذاهب الدينية فى الشرق :

لم يبق المجتمع الإسلامى على عهد قيامه بالمدينة خاصا بالمسلمين وحدهم . وإنما بعد فتح مكة لم يدخل المكيون فقط ، ولا العرب فى شبه الجزيرة العربية وحدهم فى دين الله أفواجا . بل دخله هؤلاء وهؤلاء ، ومعهم تباعا تلك المجتمعات ، مما كانت تظللهم الحضارة الرومانية أو الحضارة الفارسية فى الشرق الأدنى ، ثم فى الشرق الأوسط ، والأقصى ، وشمال إفريقيا .. إلى آخر ما يعرف من مجتمعات إسلامية فى آسيا .. وإفريقيا وأوروبا .

ومع امتداد ظل الإسلام على أرض الله اتصل الإسلام برواسب الثقافات القديمة .. والأديان والمذاهب السابقة على الإسلام ، مما كانت لدى أهل الكتاب ، أو من لهم شبهة بكتاب .

* * *

● تحديات علم الكلام عند اليهود والمسيحيين :

فاتصل الإسلام بعلم الكلام عند اليهود والمسيحيين ، وابتدأ يراود تفكير المسلمين : بعض آراء لهؤلاء وأولئكم فى مشاكل كانت لهم خاصة :

---

(٢) المائدة : ١٠٣ (٣) الانعام : ١٣٦

كمشكلة الأقانيم .. ومشكلة الرجعة ، والمهدى المنتظر .. ومشكلة الحلول وعصمة الإمام .. ومشكلة التجسيد والتشبيه .

وأصبحنا نرى عند متقدمى المدرسة الاعتزالية كأبى الهزيل العلاف : حلا لتعدد صفات الله على نمط حل علم الكلام المسيحى لتعدد الأقانيم . فيرجع الصفات جميعها إلى صفتى العلم والحياة ، ثم يتصور أنهما عين الذات . وعلم الكلام المسيحى ــ متأثراً بالأفلاطونية الحديثة ــ يعود بأقنومى : ابن الله .. والروح القدس .. إلى ذات الله . أى أن الأقانيم الثلاثة لا تشكل فى الوجود إلا موجوداً واحداً له صفتان .

.. وأصبحنا نرى أيضا : مشكلة الرجعة فى علم الكلام اليهودى ، وعلم الكلام المسيحى خاصة بعيسى ، يتبناها بعض مذاهب الشيعة بالنسبة للإمام، كما تصبح الرجعة نفسها من عقائد هذه المذاهب ، وتتفرع عنها : فكرة المهدى المنتظر ، والأحاديث المتصلة بها . وتقوم الرجعة على أساس أن الإنسان المميز بالرسالة أو الأمانة لا يموت . بل يختفى فقط إلى وقت معلوم يظهر بعده حاملا رسالة الإصلاح للبشر من جديد .

.. أما مشكلة الحلول ــ التى هى أصلا من روافد الفكر البوذى والبراهمى ــ وتلقفتها الكنيسة المسيحية لتقيم عليها عصمة البابا فى الرأى . ووجوب الطاعة له فى غير حد وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الكنسية .. فإنها برزت فى الفكر الشيعى بين المسلمين . وتطبيقا لها فى هذا الإتجاه الشيعى يتمتع « الإمام » بالعصمة فى القول والرأى . بل يذهب بعض أتباع الحلول إلى إسقاط التكاليف التى كان الرسول عليه السلام قدوة فى أدائها : عن الإمام المعصوم ، المشاهد ، أو المغيب على السواء .

.. ومشكلة التجسيد والتشبيه عندما أثيرت أولا فى علم الكلام اليهودى ، ثم فى علم الكلام المسيحى : أثيرت تحت ضغط الفهم الحسى أو الفهم المادى للمعبود وصفاته ، وهو فهم يقوم على قياس الغائب على الشاهد ، الذى تستخدمه الوثنية المادية فى وصف المعبود المعين ، فالوثنية المادية لا تتحرج من وصف المعبود بالذكورة أو بالأنوثة .. وبالزواج .. وبالنسل .. وبالأكل والاستمتاع ، على نحو ما يستمتع الإنسان .

وابتدأنا نرى المشبهة أو المجسمة طريقا لبعض الكلاميين فى تحـديد صفات الله التى تعطى فى ظاهرها : الميل إلى ما للإنسان ، تقريبا للمعنى من طاقة العامة على الفهم : كالاستواء على العرش فى قوله سبحانه :« **الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش** » (٤) .. وكالحـديث عن يد الله ، فى قـــول الله تعـــالى : « **ان الذين يبايعونك انمـــا يبايعـون الله يـد الله فـــوق أيديهـم** » (٥) .. وفى قـــوله : « **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** » (٦) ..



● تحديات الفكر الفارسى :

كما اتصل الإسلام ـــ بعد خروج المسلمين به من شبه الجـزيرة ـــ بالفكر الفارسى وهنا عرف المســلمون مذهب المثنويين . والمثنـــويون هم القائلون بإلهين فى تعليل نظام الوجود للعالم : إله للنور .. وآخر للظلمة . والأنوار فى العالم هى الموجودات العليا ، وعلى رأسها نور الأنوار . بينما الظلمة : للمادة والكائنات التى تبعد عن محيط الأنوار فى الأرض .

وعن اتصال المسلمين بالفكر الفارسى ظهر فى تفكيرهم ما يســـــمى « بالإشراق » . وهو اتجاه يلائم بين تصور الوجود فى نظام الإسلام على أن الله هو الأول والخالق وحده ، وبين ذلك التصور الآخر الذى توحى به المثنوية من ترتيب الموجودات فى النور .. والظلمة . فأطلق على الله : نور الأنوار .. كما أطلق على الملائكة أنهم : أنوار ، ونورانيون ، يتلونه فى مرتبة الوجود فى تسلسله .. إلى المادة . وأبرز أصحاب هذا الاتجاه الإشراقى فى التفكير الإسلامى هو السهروردى المقتول فى القرن السادس الهجرى .



● تحديات الفكر الهندى :

وانفتح طريق الفكر الهندى أمام المسلمين . وهو تفكير قائم على الدعوة

---

(٤) الفرقان : ٥٩ — (٥) الفتح : ١٠

(٦) المائدة : ٦٤

إلى الهروب من الدنيا ، ومن الاستمتاع بمتعها .. هو تفكير صوفي يستهدف فناء الجسم في الإنسان .. واتحاد روحه مع براهما .. الإله الأكبر . وأقبل بعض العلماء من المسلمين على هذا الاتجاه الصوفي ، والربط بينه وبين ما يطلب في الإسلام من الزهد ــ بمعنى عدم الإسراف ــ في استخدام متع الحياة . فظهر في الفكر الإسلامي الصوفي : ما يسمى « بوحدة الوجود » وهو مفهوم يعطي تصور اتصال روح الإنسان بالله تعالى .. ثم اتحاده به . وعندئذ يحل الله في الإنسان ، أو تتحد روحه بذاته جل جلاله . وفي مقدمة أصحاب « وحدة الوجود » في الفكر الإسلامي محيي الدين محمد بن عربي . وفي تفسيره للقرآن الكريم : الكبريت الأحمر .. يكشف عن هذه الوحدة الشاملة فيما يفسر به قول الله تعالى : **« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » (٧) ..**



● تحديات الفكر الوثني الاغريقي :

أما تحديات الفكر الوثني الإغريقي فقد خلفت في التراث الفكري الإسلامي عدة مشاكل . أهمها :

مشكلة العقل والوحي . ويقصد بالعقل ما أتى إلى المسلمين عن طريق نقل العلوم إلى اللغة العربية : من فلسفة الإغريق في أصل الوجود ، وعلته الأولى وبالأخص ما أثر عن أفلاطون وأرسطو .

والفارابي في كتابه : « نصوص الحكم » : حاول التوفيق بين خصائص الوحي للرسول عليه السلام ، وما يصل إليه الفيلسوف بسبب تجرده من التأثر بماديات الحياة : إلى الحكمة والصواب في الرأي . ولكن رغم دقة المحاولة العقلية للتوفيق عنده فإنه لم يوفق إلى إزالة التناقض بين الوحي كعمل إلهي واختيار من الله للإنسان الموحى إليه .. والحكمة كمستوى إنساني يصل إليه الإنسان بمجهوده البشري وجهاده لنفسه .

.. وكذلك مشكلة الشرع والعقل ، ومدى ما يصل إليه العقل البشري

---

(٧) البقرة : ١١٥

من إدراك الحسن والقبح ، مستقلا عن الشرع ، وما يترتب على إدراكه من وجوب التكليف بما يذهب إليه الشرع قبل التبليغ للرسالة ، أو فى غيبة هذا التبليغ . وتعرف هذه المشكلة فى المدرسة الاعتزالية باسم : الحسن والقبح العقليين .

.. وكذلك مشكلة الصلاح والأصلح ، أو مشكلة العدل الإلهى . وهى تتجه إلى أن العقل البشرى يصل بمنطقه إلى وجوب الأصلح على الله . إذ فى تحقق الأصلح للإنسان يتحقق العدل الإلهى . وتسمى المعتزلة — من أجل احتضانهم لفكرة العدل — باسم أهل العدل . لأنهم يحكمون العقل فى تحديد الصلاح ، وتحديد الأصلح ، ولكنهم يتجاهلون : أن التجربة مع الإنسان الأول ، وهو آدم ، فى الجنة أتت بعدم استطاعة العقل : كشف الأصلح له . وإلا : ففيم الندم إذ يقول هو وحواء ، متضرعين إلى المولى جل جلاله : « **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** » (٨) .. فاعترفا بالخطأ والمعصية ، ولم يكن العقل واقيا لهما إذ ذاك من الوقوع فى الخطأ ، فضلا عن هدايتهما إلى الأصلح لهما .

.. وقد أخذت مشكلة : « واجب الوجود » فراغا كبيراً فى مؤلفات علم الكلام الإسلامى .. وفى الفلسفة الإسلامية . وهى مشكلة تلقفها بعض فلاسفة المسلمين المشائيين على أنها سند لدعوة الإسلام إلى الوحدة فى الألوهية ، التى واجهت بها الدعوة الإسلامية : الوثنية المادية بمكة ، وجعلتها الضمان لعودة الصفاء إلى رسالة إبراهيم وإسماعيل ، ولتصحيح الرسالة الإلهية فى تاريخها الطويل من تشويه الشرك والإلحاد .

ومفهوم « واجب الوجود » — كما هو فى فلسفة أرسطو — يسيء فى نقله : إلى الله سبحانه وتعالى ، كما يحدد القرآن الكريم : صفاته ، جل وعلا . كما يسيء إلى المؤمنين به فى تصورهم إياه . فواجب الوجود فى الفلسفة الأرسطية يطلق على العلة الأولى ، وهى موجود يعشق لكماله . ولكن ليست له فاعلية فى غيره ، فضلا عن أن يكون خالقا له . وكل ما يعطيه لتحديد ذاته : أنه واحد من كل وجه : فى التصور .. وفى الواقع . فليس

(٨) الأعراف : ٢٣

متعددا فى ذاته .. وليس مركبا من أجزاء : حقيقية أو فى التصور . وعن هذا التحديد لذات واجب الوجود فى الفلسفة الأرسطية وقبوله لدى بعض المسلمين نشأت مشكلة الصفات لله فى تصور المسلمين لذاته : هل الصفات لله هى عين ذاته ؟ .. أم هى غيرها .. أم هى لا عينها ولا غيرها .. هل إذا كانت عين الذات ترد إلى صفتى : العلم ، والحياة أولا .. ثم إلى الذات ؟ أم ترد جميعها مباشرة إلى الذات ؟ . وفى الإجابة عن هذين السؤالين يختلف السلف بين مذاهب علم الكلام عن المعتزلة والفلاسفة المسلمين .. ويختلف السابقون فى مدرسة الاعتزال عن المتأخرين منهم فيها . ويتعقد التصور الذهنى للمسلم العادى : عن الله سبحانه وتعالى .. ويتشعب المسلمون ما بين : صفاتيين .. ونفاة للصفات ، وأصحاب توحد .

.. وتتصل بفكرة واجب الوجود فى الفلسفة الإغريقية : فكرة العقول العشرة .. من العقل الفعال .. إلى العقل المباشر لتدبير الإنسان ، وهو عقل القمر ، وتقبل هذه الفكرة من الفلاسفة المسلمين المشائيين ، ويحاولون أن يلائموا بينها وبين ما جاء فى القرآن عن خصائص الملائكة من أنهم مقربون إلى الله ، كما جاء فى قوله تعالى :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (٩) .. وشرحا لهذا القرب من الله — وتوفيقا بين الفلسفة والدين — يجعلون الملائكة عقولا خالصة ، أى جواهر لا تتصل بالمادة ، إلا اتصال تدبير . ويدرجون هذه العقول فى تنازلها من العقل الأول ، وهو الله .. إلى العقل الفعال الذى يناط به التسجيل لأعمال الإنسان . فالله عقل .. وكل ملك عقل بعده . كما يدرج أصحاب فكرة الإشراق الأنوار فى وجودها عن نور الأنوار بعد أن يطلقوها على الله والملائكة معا .

.. وأصبح بعد هذا التوفيق بين ما وفد من المشرق ، والمغرب .. وبين ما جاء فى الإسلام : ثلاث صيغ أمام المسلم . تعبر عن مدلول دينى واحد ، وهى :

أولا : الله الخالق .. والملائكة ، كما يعبِّر القرآن .

---

(٩) النساء : ١٧٢

ثانياً : العقل الأول ، وهو الله واجب الوجود .. والعقول الفعالة ، وهى الملائكة ، كما تعبر الفلسفة الإغريقية والقرآن ، بعد التوفيق .

ثالثاً : نور الأنوار ، وهو الله .. والأنوار الصادرة عنه وهى الملائكة ، كما تعبّر فلسفة الاشراق والقرآن ، بعد التوفيق .

.. وأصبحنا نقرأ فى الثقافة الإسلامية : الله سبحانه .. وواجب الوجود .. والعقل الأول .. والعلة الأولى ، من جانب .

.. الملائكة .. والجواهر الفردة .. والعقول النورانية من جانب آخر . والقرآن لم يرد بواجب الوجود ولا بالعلة الأولى .. كما لم يرد بالجواهر الفردة والعقول النورانية . والمسلم التقليدى فى معرفته يرتبط بهذه المصطلحات الدخيلة ، أكثر مما يرتبط بتعبير القرآن الكريم .

ولم يكن لهذا التوفيق من أثر فى الصياغة والتعبير فحسب . بل كان له أثر سلبى كبير على تعقيد الفهم لما جاء فى القرآن . إذ وضع المسلمين فى متاهات جدلية عقيمة لا تنتهى إلا إلى التعقيد وعدم الخروج بحل واضح لأى مشكل .. كما أضعف من حرارة إيمانهم بالقرآن ومن دفعهم إلى العمل به فى غير اختلاف وانشقاق .. وفى غير تبريرات عقيمة ، تحول دون كشف الواقع والسيطرة عليه .

وكتاب « الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى » (١٠) يوضح : تفاهة الفكر الدخيل .. ووثنيته .. وآثاره السيئة على الإيمان بالإسلام .



● **التحديات الفكرية والعقائد للقرآن فى الحاضر :**

.. كان وضع المسلمين فيما مضى ينطوى على سعة فى دائرة الإيمان بالإسلام .. وعلى عمق فى الارتباط به ، رغم الخلافات السياسية التى مزقتهم إلى مجموعات تختلف حول « الإمامة » العليا ، .. وفى وضع شروط خاصة بها تعبر عن الفجوة بين المصالح الخاصة بينهم : ورغم تفرقهم إلى

---

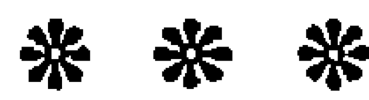
(١٠) للمؤلف .

طوائف .. ومذاهب ، وتفاوتهم فى مدى شد الإسلام إلى ما تراه كل طائفة .. وإلى ما يصدر عنه كل مذهب من رأى .

إذ العوامل التى مهدت لوضع المسلمين اليوم فى حاضرهم كانت عوامل قاسية فى اقتلاع جذور الإيمان بالإسلام من مجتمعاتهم .. ومن محيط حياتهم .. ومن معاملاتهم .. ومن قضائهم .. ومن توجيههم .. ومن سلوكهم .

.. كان المسلمون منقسمين قبل اليوم . ولكن انقسامهم لم يصل إلى نسيان المسئولية الجماعية التى توجب التعاطف والتضامن فيما بينهم .. ولم يصل كذلك إلى اللامبالاة التى وصل إليها أمر المسلمين اليوم فى صلات مجتمعاتهم : بعضها ببعض .

.. لم يكتف الاستعمار الأجنبى فى الحاضر بوضع فواصل غير طبيعية ، عندما قسم المسلمين إلى مجتمعات . ودول .. وسلطنات . بل وضع الأساس فى التقسيم : الإمكانيات الاقتصادية ، والبشرية التى يريد أن يستنزفها فى شره ، وفى غير اعتبار بشرى لما يستخدمه منها فى أرض المسلمين وبلادهم .. كما راعى فى هذا التقسيم : الاتفاق والتراضى بين المستعمرين العديدين على توزيع هذه الإمكانيات بينهم ، كما اتفقوا جميعا — على تعددهم — على أسلوب العمل لاستغلال هذه الإمكانيات .. إلى أقصى مستوى فيها وهو إضعاف الإيمان بالإسلام بين المسلمين ، بإبعادهم عن رؤية إيجابية فى الحياة البشرية : إن بالسعى والعمل الجدى .. وإن بالترابط والتضامن فيما بينهم فى السراء ، والضراء .



● **تحديات الفكر العلمانى :**

.. وكان فى مقدمة الخطوات فى أسلوب العمل الاستعمارى : دفع « العلمانية » فى محيط الحياة الإسلامية . والعلمانية مصطلح يقصد به : أن فى الحياة التى يعيشها الإنسان فى مجتمعه جانبين . يتميز أحدهما عن الآخر . جانب دنيوى ، وهو جانب الحياة الاقتصادية .. والسياسية .. والطبيعية ، أى التى تتصل بالطبيعة من الأرض وما فيها .. وما تحتها .. وما فوقها ،

من إمكانيات ومصادر للثروة : معلومة أو مجهولة يمكن كشفها . وهـذا الجانب ليست له قدسـية . بل هو جانب ينطوى على دنس وشر . وهو للدولة . وجانب آخر قدسي وهو جانب الأسرة .. والوجود الإلهى على هذه الأرض ، وهو للكنيسة .

ومنطق هذا المفهوم للعلمانية يقضى بتوزيع الإنسان بين هذين الجانبين ، وإخضاعه إلى توجيهين أو إلى سلطتين مختلفتين ، لهما إلزام التوجيه عليه .

.. وهنا نشأت فى الفكر الأوربى فكرة الفصل بين الدين والدولة .. أو بين سلطة الدولة وهى السلطة الزمنية أو الدنيوية من جانب .. وسلطة الكنيسة ، وهى السلطة الدينية أو الإلهية من جانب آخر .

وبينما سلطة الدولة تناقش وتنقد .. إذا بسلطة الكنيسة لا تقبل غير الخضوع والطاعة . وهكذا : هناك دولتان ، أو سلطتان فى حياة الإنسان الأوربى فى المجتمع الواحد : سلطة الدولة .. وسلطة الكنيسة . الدولة فيما يسمى بالحيـاة المدنيـة وهى علاقة النـاس فى المجتمع بعضـهم ببعض . وحكمها هو الحكم المدنى .. أو العلمانى .. أو الدنيوى .. أو السياسى . والكنيسة فيما يسمى بالحياة الدينية ، وهى حياة الأسرة ، والعـلاقات الشخصية : فى الزواج ، وفى الأبناء ، وفى الوفاة ، وصلة الإنسـان بربه ومعبوده . وحكمها هو الحكم الدينى . أو الإلهى .. أو الكنسى . والحكومة الإلهية حكومة معصومة عن الخطأ . وقول البابا لا يرد . لأن الإله الذى حل فى الكنيسة .. يحل بدوره فيمن يوجه سلطتها العليا ، وهو البابا .

وقد قامت العلمانية بدور أسـاسى فى إضـعاف السـلوك الدينى فى المجتمعات الأوربية . وعلى وجه خاص عن طريق التربية والثقافة . ولولا يقظة الكنيسة فى المحافظة على سلطتها وأداء رسـالتها فى اختصـاصها : لتحولت المجتمعات الأوربية جميعها اليوم إلى مجتمعات إلحادية .

.. هذا النمط من التفكير العلمانى أقحم نفسه مع سلطة الاسـتعمار الأوربى فى المجتمعات الإسـلامية . وتسرب إلى التعليم .. والقضـاء .. والتشريع .. وأوجد له من بين المسـلمين دعاة يبشرون به ، بجانب سـلطة

أصحاب النفوذ الاستعمارى ، وفى خدمتهم . وأخذت الحياة فى المجتمع الإسلامى تتشعب إلى : تعليم دينى .. وتعليم مدنى .. وإلى سلطة قضائية شرعية .. وأخرى مدنية .. وإلى تشريع شرعى فى الأحوال الشخصية .. وآخر مدنى فى المسائل المدنية ، والجنائية ، والدستورية ، والعلاقات الدولية .

واشتد سند التفكير العلمانى فى المجتمعات الإسلامية ، وطغى بذلك ما يسمى بالجانب المدنى على الجانب الإسلامى . وانتهى الأمر فى عهود الحكم الوطنى بعد استقلال المجتمعات السياسية إلى إلغاء القضاء الشرعى .. والتضييق على فقه الأحوال الشخصية .. ومحاولة مساواة المرأة بالرجل فى الميراث ، إسهاما فيما يسمى : « حركة تحرير المرأة » التى تعد ظاهرة بارزة فى النصف الثانى من القرن العشرين ، كما اشتد النقد لمبادىء الإسلام . فى وسائل الإعلام المختلفة ، وفى الكتب .. والدوريات .

وأصبح الفصل بين الدين الذى هو الإسلام .. والدولة فى أى مجتمع إسلامى : حقيقة قائمة . بحجة أن مجال الدين ، وهو الإسلام ، يختلف عن مجال الدولة . وأصبح شعار : الدين لله .. والوطن للجميع : شعاراً سائداً فى المجتمعات الإسلامية ، بالأخص بعد استقلالها سياسيا مما يسمى بالاستعمار الأوربى .

فهل الإسلام يرى فى حياة الإنسان مجالين لسلطتين مختلفتين ؟ .

وهل الإسلام يرى دنس المادة وشرها حتى يمكن لهيئة غير دينية تتولى شئونها ؟ .

وهل الإسلام يرى فى المجتمع البشرى حكومة إلهية معصومة عن الخطأ ، تجب لها الطاعة والاستسلام فى غير شورى ، وفى غير إبداء رأى ؟ .

وهل كانت قيادة المجتمع على عهد الرسول عليه السلام بعيدة عن أى خطأ ؟ ولماذا كان عتاب الله لرسوله فيما اتجه إليه فى شأن أسرى بدر ، فى قول الله تعالى : **« ما كان لنبى أن يكون له اسرى حتى يثخن فى الأرض »**

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)) (١١) ..

إن فكرة العلمانية تواجه إذن الإسلام فى مجتمعه ، وتحمله على قبول ما قبلت به الكنيسة فى المجتمع الأوربى . والعلمانيون فى المجتمعات الإسلامية يفرضون عليها قبولها فى التخطيط والتطبيق . والساسة فى المجتمعات الإسلامية يحاولون أن لا يسمعوا كلمة : الإسلام ، فى شأن نظام حكم هذه المجتمعات .

والإسلام بمواجهة العلمانية له .. وبدفعها إياه على هذا النحو : يتخلف رويداً .. رويداً عن الظهور فى مجتمعاته ، وبين شعوبه . إذن لابد أن يكون هناك توضيح إسلامى لوضع الإسلام فى حياة المسلم ــ وفى نظرته لطبيعة الإنسان .. وفى تقديره للمادة .. وفى مدى توجيهه فى تنسيق مع طبيعته الإنسانية ، وفى ملاءمة مع متع الحياة المادية . لابد من توضيح إسلامى (١٢) لهذا .. ولغيره ، يأخذ طابع الدفاع ، ولون علم الكلام الإسلامى . وعندئذ يكون مثل هذا التوضيح امتداداً لعلم الكلام عندما واجه تفكير الغرب والشرق فى دينه .. وفلسفته .



● **تحديات الفكر الاستشراقى :**

ثمة رافد آخر من الفكر الدخيل فى حاضر المجتمعات الإسلامية ، يساعد العلمانية على يسر القبول ، والتمكن فى توجيه المسلمين . وهو تحد آخر للإسلام . وهذا الرافد الآخر هو الفكر الاستشراقى . أى اتجاه المستشرقين فى بحث التراث الإسلامى والمبادىء الإسلامية . وهو فكر عمل الاستعمار على قيامه .. ونشره .. وتوطينه فى البلاد الإسلامية . نعم قد تكون هناك بحوث للمستشرقين تستحق الاهتمام والإعجاب . ولكنها قليلة بالنسبة لبحوثهم الأخرى التى تستهدف تشكيك المسلمين فى دينهم ، وتحاول أن تخلخل الصلة بين المسلمين وإسلامهم .

---

(١١) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨

(١٢) من الكتب التى تعالج هذا الموضوع : للمؤلف : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .. ورسالة : العلمانية والاسلام : بين الفكر والتطبيق .

.. هى بحوث فيها : التجرد فى البحث ، وسلوك المنهج العلمى فيها . ولكن معظمها تكرار لاتهامات الماديين المشركين على عهد القرآن :

.. فيدعون مثلا : أن القرآن ليس وحيا من الله . وأن الرسول عليه السلام ألفه . وقد أثار مشركو مكة هذا الادعاء ، فيما يحكيه الله سبحانه وتعالى : **« أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين »** (١٣) ..

وقد نقل عنهم هذا الادعاء كتاب الشعر الجاهلى فيما يرويه من أن الرسول صلوات الله عليه : عاش فى فترة مزدهرة من الحضارة الإنسانية فى شبه الجزيرة العربية ، وهى حضارة سياسية ، واقتصادية ، وتأثر بها ؛ وكان القرآن تعبيراً عما تأثر به منها .

.. ويدعون أيضاً : أن الرسول عليه الصلاة والسلام نقل ما فى قرآنه عن أهل الكتاب ، على نحو ما ادعى المشركون الماديون فى مواجهته صلى الله عليه وسلم ، فيما يقصه قول الله تعالى : **« ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون** (أى يحيدون ويعدلون عنه) **اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »** (١٤) ..

.. وقوله : **« وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً »** (١٥) ..

.. وقوله : **« انى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون »** (١٦) ..

وكما اتهمه هؤلاء المكيون الماديون : بأنه ــ عليه السلام ــ فى تعلمه من الآخرين لم يكن طبيعياً فى تفكيره .. بل كان مجنوناً وغير مستقر ذهنيا : فيما يستمع ، ويتعلم .. كذلك عندما ينسب المستشرقون إليه صلى الله عليه وسلم : أنه تعلم من أهل الكتاب : يقولون أيضاً : إنه أساء استخدام ما تلقنه .. ولم يستطع أن يستوعبه بعقله .. وبالتالى كان مشوشاً فى التعبير عنه فى قرآنه . ويضربون المثل على ذلك بمسألتين اختلف فيهما القرآن عن مسيحية الكنيسة :

---

(١٣) الطور : ٣٣ ، ٣٤
(١٤) النحل : ١٠٣
(١٥) الفرقان : ٤
(١٦) الدخان : ١٣ ، ١٤

المسألة الأولى : مسألة التثليث .. والوحدة فى الألوهية . فيقولون : إن محمداً لم يستطع فهم التثليث ، ولذا قاومه وندد به . ودعا إلى وحـــدة الألوهية ، على نحو ما يقول الله تعالى : **« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (١٧) ..**

المسألة الثانية : ألوهية المسيح . فيدعون كذلك : أنه (أى محمـداً عليه السـلام) لم يرق إلى مستوى الرسالة ، وإلى مستوى المسيح . ولذا لم يفهم ألوهيته . فبقاؤه فى المستوى البشرى حال دون تقبـله الوضـع الصحيح لعيسى . وقد ظهر غضبه على تأليه المسيح فيما يعبر عنه قرآنه فى قول الله تعالى : **« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسـيح ابن مريم » (١٨) ..** ثم فى قوله : **« ما المسـيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمـه صـديقة ، كانا يأكلان الطعـام ، انظـر كيف نبين لهـم الآيات ثم انظـر أنى يؤفكون » (١٩) ..**

اختلاف القرآن عن مسيحية الكنيسة فى هاتين المسألتين ــ وفى غيرهما ــ لم يكن لعامل إنسانى لدى الرسول عليه السلام .. أى لم يكن لقصور أو تشويش فى تفكيره ، كما يدعى هؤلاء المستشرقون . وإنما جزء رئيسى فى رسالة القرآن . يتعلق بتصحيح الأخطـاء والتحـريف الذى وجـد عند بنى إسرائيـل : من يهـــود ومســيحيين ، على السـواء . ويشــير إلى رسـالة القــرآن من أجـل هـذا التصـحيح قـول الله تعـــالى : **« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين . ان ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليـم . فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » (٢٠) ..** كما يشير القرآن إلى أخطاء التحريف للكتاب الذى جاء به موسى من جانب بنى إسرائيـل فى قـول الله تعالى : **« وما قدروا الله حق قدره** (والخطاب هنا للمكيين الماديين) **اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شىء ، قل من انزل الـكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » (٢١) .**

---

(١٧) المائدة : ٧٣
(١٨) المائدة : ٧٢
(١٩) المائدة : ٧٥
(٢٠) النمل : ٧٦ ــ ٧٩
(٢١) الأنعام : ٩١

(والخطاب الآن لبنى إسرائيل . أى أن كتاب موسى لم يبق ـ كما كان ـ نوراً وهدى للناس ، بسبب إظهار بعضه وإخفاء الكثير منه . ولذا كان هنا مكان لرسالة القرآن ، التى هى تصديق لكتاب موسى فى أصله) .. والآية إذ جاءت الآن لتأنيب الماديين المكيين على اتهامهم الفج ، فإنها أيضا فى الوقت نفسه أبرزت السبب فى نزول القرآن ، بعد التوراة ، وهو تحريفهـا الذى باشره علماء بنى إسرائيل .

.. ثم يتلقف المستشرقون ـ زيادة على تكرارهم لتهـم الماديين المكيين بالنسبة للقرآن .. أو بالنسبة للرسول عليه السلام ـ أخطاء فى أفهام بعض المسلمين للقرآن .. أو يحاولون هم استنتاج ما يبعد استنتاجه من ظواهر الآيات القرآنية .

.. فيتلقفون مسألة : « النسخ » فى القرآن مثلا . ويدعون أن القرآن مضطرب فيما يقوله ، لأن محمداً يقع تحت تأثيرات مختلفة ومتضـاربة . ويذكرون كثيراً من الأمثلة التى يوردها هذا البعض من علمـاء المسـلمين للاستشهاد على نسخ القرآن : بعضه لبعض .

ولو عرف هذا البعض من العلماء ـ وكذلك لو أخلص المستشرقون فى نواياهم فى عرض الإسلام ـ أن القسم المدنى من القرآن نزل منجما ، حسب تطور مجتمع المدينة وظهور مشاكله واحتياجاته : لأدركوا جميعا : أن تكوين المجتمع لا يتم نقله من وضع .. إلى آخر على النقيض منه : دفعة واحدة .. وأن التطور النفسى عامل رئيسى فى تماسكه وفى بقاء أفراده فى نطاق هدفه المعين . والتطور النفسى لا يقبل الفجأة .. ولا يلتئم مع التحديات النهائية فى أول طـريق التكوين . وجاء التعبير عن نزول القـرآن منجـما فى قول الله تعالى : **« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » (٢٢) ..**

وكذلك لو عرف هذا البعض : أن النسخ ليس فى رسالة أى رسول . وإنما هو بين رسالات الرسل ، ككل . كالذى وقع بين رسالة إبراهيم ..

---

(٢٢) الفرقان : ٣٢

وموسى .. ومحمد ، عليهم السلام فى حل العمل يوم السبت ، وفى تحريمه . على نحو ما يصوره القرآن فى قول الله تعالى : ((**ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ،** (أى إنما حرم العمل يوم السبت على بنى إسرائيل لأنهم هم الذين عصوا الله فيما أمرهم به فى قوله : ((**ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت**)) (٢٣) (أى لا تتجاوزوا الأمر فى شأنه ، وهو عدم العمل فيه) **وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**)) (٢٤) .. فأمر الرسول محمد عليه السلام باتباع إبراهيم — دون موسى — فى حل العمل يوم السبت . وإذن ما جاء فى القرآن هو نسخ : لما جاء فى التوراة فى هذا الشأن ، وعودة بالبشرية إلى ما كان عليه إبراهيم .

ولذا كان من أسباب رفض القرآن من جانب بنى إسرائيل هو نسخه لبعض ما جاء فى التوراة . ويشير إلى ذلك قول الله تعالى : ((**واذا بدلنا آية مكان آية** (أى أتينا فى القرآن بآية تدل على حكم .. بدل آية فى التوراة تدل على حكم مغاير له) **والله أعلم بما ينزل قالوا** (أى قال ذلك أهل الكتاب من بنى إسرائيل ، لأنهم هم الذين لهم كتاب منزل ينطوى على آيات الأحكام ، وليس المشركون المكيون) **انما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين**)) (٢٥) ..

.. ويحاولون إبراز ما يسمى بالتضارب فيما يريده القرآن ، أو فيما يأمر به وينهى عنه ويعرضون للجبر .. والاختيار ، ويذكرون الآيات التى يؤخذ من ظاهرها : وجود الجبر وعدم المشيئة ، بالنسبة للهداية على الأخص .. والآيات الأخرى التى تترك أمر الكفر والهداية إلى الإنسان . ويشيرون إلى مذهب الجبريين .. وإلى المذهب الآخر ، وهو مذهب المعتزلة فى اختيار الإنسان . ولكنهم لا يشيرون إطلاقا إلى الدوافع السياسية فى أمور الخلافة الإسلامية التى دفعت إلى إعلان مذهب الجبر فى عهد الأمويين .. وإلى

---

(٢٣) النساء : ١٥٤

(٢٤) النحل : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢٥) النحل : ١٠١ ، ١٠٢

مذهب الاختيار على أيام حكم العباسيين . والسياسة فى استخدامها الدين لا تتركه وحده يقول ما يريده . وإنما تحمله — على يد نفر ممن ينتسبون إليه — على قول معين . هو القول الذى تحتاجه السياسة فى وجه خصومها فى الحكم ، تأييداً لاتجاهها فيه . ولكنهم يبتغون الفتنة .. ويبتغون تأويله . كما صنع أسلافهم من أهل الكتاب ذلك ، وحكاه الله فى قوله تعالى : **« هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب » (٢٦) ..**

ولو اتضح لهؤلاء ولغيرهم أن الجانب النفسى فى القرآن بالنسبة للرسول عليه السلام كان عنصراً هاما فى نجاح الدعوة به : لترددوا كثيراً فيما يتهمونه به . فعندما يقول الله لرسوله الكريم صلوات الله عليه : **« انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » (٢٧) ..** يقول له ذلك — ناسبا الهداية إلى الله وحده — ليطمئنه نفسيا بأن عليه صلى الله عليه وسلم — فقط : مباشرة الدعوة بين أقربائه ، ولكنه لا يتحمل نتائجها عنهم . فسبحانه هو الذى يقول له كذلك فى هذا الشأن : **« ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » (٢٨) ..** دفعا لما قد يجول بنفسه من خواطر الأسف ، بسبب عدم نجاح دعوته بين أقربائه .. وتشجيعا له على السير نحو الأمام فى رسالته .

أما المسئولية الشخصية عن الإيمان ، والكفر .. وعن العمل الصالح ، والسيء ، فهى حقيقة بارزة فى القرآن . لأنها قائمة على الحرية الكاملة فى قبول الإيمان بالإسلام ، أو فى رفضه : **« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢٩) ..**

« ومن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون » (٣٠) .. ولا يمكن أن يكون الإنسان مسئولا عن كفره إلا إذا كان ذا مشيئة فيه .

وآيات القرآن التى تظهر نسبة الإيمان والكفر إلى الله تستهدف هدفين :

---

(٢٦) آل عمران : ٧ — (٢٧) القصص : ٥٦

(٢٨) النحل : ١٢٧ — (٢٩) الكهف : ٢٩

(٣٠) الروم : ٤٤

الهدف الأول : أن مشيئة الله تعين الإنسان على الهداية ، إذا أقبل عليها أو عندما يقبل عليها ، ولا تعينه عليها إذا أعرض عنها : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** » (٣١) ..

الهدف الثانى : إحاطة الداعى والدعوة بجو النجاح وعدم الخذلان . وذلك بإبعاد : أن يكون الإيمان .. أو عدم الإيمان من مستتبعات النشاط فى الدعوة والداعى إليها . وهنا ليس على الداعى إلا أن يقوم بواجبه فى شرح الدعوة ، دون انتظار لما تسفر عنها نتائجها . ويكل النتيجة لله وحده ، ويعتمد عليه فى النجاح أخيرا :« **فلذلك فادع ، واستقم كما امرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير** » (٣٢) ..

.. كما يتلقف هؤلاء المستشرقون ما قد يوجد فى بعض كتب المتأخرين فى الفقه من استنتاجات افتراضية ، ربما لا تقع فى الحياة العملية للإنسان . ولكن يفترض الفقيه ـ وهو منعزل عن أحداث الحياة .. ومستغرق فى خيال التصور ـ وقوعها ، ويدخلها فى دائرة استنتاج الأحكام الفقهية ، كما تذكر بعض كتب الفقه مثلا : الأحكام التى تترتب على زواج إنس بجنية .. أو وزاج جن بإنسية : فى الطلاق .. وفى الميراث ..وفى النسب ومستقبل الأولاد . وكما تذكر هذه الكتب أيضاً : الحكم الشرعى : من بطلان .. أو كراهية ، فى خطيب يصعد المنبر يوم الجمعة .. أو يؤم المصلين فى صلاتها ، وهو يحمل قربة من الفساء ..

وفى سرد هؤلاء المستشرقين لمثل هذه الأحكام الافتراضية فى الفقه يقدرون : أن يشيروا إلى الانعزالية أو البعد فى أحكام الفقه الإسلامى عن واقع الحياة .. أو عن مدى إهماله فى معالجة القضايا والمشاكل التى تعترض حياة المسلمين فى اختلاطهم بحضارات أخرى .. وفى عهود يتقدم فيها العلم والتطبيق الصناعى ، ويصل فيها الإنسان إلى مستوى السيطرة على الأجواء ،

---

(٣١) الأنعام : ١٢٥ (٣٢) الشورى : ١٥.

بعد أن سيطر على الأرض والبحار .. يقصدون : إما إلى إبراز جمود الفكر الإسلامى أو تخلفه .. أو عدم صلاحية الشريعة الإسلامية لدفع المسلمين نحو التطور .. والخروج من الركود الذى يعيشون فيه .

وفى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية كان يقوم فى العشر سنوات الأخيرة أستاذ بريطانى ـ وهو من كبار المستشرقين . وأكثرهم اعتدالا ، وهو الأستاذ « جب » بتدريس هذا النوع من الفقه الافتراضى ، بدعوة من الجامعة ، وعلى نفقة اعتماد مالى كبير لتدريس حضارة الشرق الأدنى وحركاته الإسلامية المعاصرة ، للطلاب الأمريكيين .. والوافدين من أنحاء العالم .

ومثل هذا العمل للمستشرقين هو تحد آخر للإسلام فى وقتنا المعاصر ، يجب أن يواجه بتتبع وبيان ما فيه من فساد .. ومغالطة .. وخلط .. وتشويش . على نحو ما صنع المرحوم الإمام محمد عبده فى رده على المستشرق الفرنسى : « رينان » فى كتابه : « الإسلام والنصرانية » [٣٣] . ومن الأسف أن عمل هؤلاء المستشرقين تعدد .. وتنوع .. واتسع إلى درجة أنه يصعب على القلة المفكرة من علماء المسلمين أن تواجهه . ثم فى الوقت نفسه له أثر سلبى .. ونافذ .. ومستمر ، على المثقفين المسلمين ، لأن تنظيمهم لبعض المراجع الإسلامية ، ومنهجهم فى التبويب ، والترتيب ، للفكر ، أو للكتب : من شأنه أن ييسر الرجوع إلى المفاهيم الإسلامية ، وإن كانت تنطوى على تحريف ، أو إساءة متعمدة فى شرحها . فدائرة المعارف الإسلامية ـ مع ما فيها من أغلاط وتحريف متعمد ـ تدفع إلى من يبحث عن بعض المراجع الإسلامية المعاصرة .. إلى الرجوع إليها . وقلما ـ من تعود الرجوع إليها ـ يكون على علم بالمفاهيم الإسلامية من مصادرها ، وبالأخص من القرآن الكريم .



تحديات الفكر الطبيعى :

وبجانب ما وفد من الغرب إلى المجتمعات الإسلامية فى ظل الاستعمار

(٣٣) وعلى نحو ما جاء فى تقييد ادعاءات المستشرقين فى كتاب : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

من تحديات العلمانية .. والاستشراق : وفد أيضاً إلى هذه المجتمعات تحديات الفكر الطبيعي . وهو الفكر الذي يرى علل الأشياء في ذواتها .. ويخضع أحداثها إلى استتباع الأسباب الطبيعية لمسبباتها . والفكر الطبيعي يعترف بالتجربة المادية وحدها كوسيلة للعلم . ومن أجل ذلك ينكر أي مصدر آخر له ، كغيب السماء وما يأتي به الوحي منه .

.. وهنا وجد تحدى : ما يسمى بمشكلة العلم والدين . فحسب مقياس العلم في اتجاه الفكر الطبيعي يعتبر الدين أسطورة .. أو خرافة غيبية . أي لا يعتمد فيما يقول على تجربة الحس ، ولا على وسائل الاختبار العلمية ، والملاحظة لمرور التجربة في مراحلها العديدة . وفعلا يتحدث الطبيعيون عن نوعين من العلم : أحدهما تجريبي ، وهو العلم الطبيعي وهذا هو النوع المقبول . وثانيهما غيبي ، وهو الدين . وهو لا يعتد به ، كما لا يعتمد عليه في بناء المجتمع وسلوكه . وإذن يردد الطبيعيون ما كان يردده المشركون الماديون على عهد الرسالة ، على الرسالة ، على نحو ما يقص قول الله تعالى : **« ومنهم من يستمع اليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين » (٣٤) ..**

.. ومحمد إقبال — في كتابه « إعادة بناء الفكر الإسلامي » .. يرى في قصر الطبيعيين : العلم ، على ما تأتي به نتائج التجربة المادية وحدها .. أي على ما يأتي به الحس وحده : نوعا من القصور في تحديد وسائل العلم .. أو نوعا من التحيز في اختيار الحس وحده ، كوسيلة يؤخذ بها ويعتمد عليها . فما يأتي به الدين كذلك من علم ، فإيمان به : هو تجربة كذلك . ولكنها تجربة نفسية ، تخضع للممارسة الداخلية للإنسان . أي تخضع لجهاد النفس وترويضها . فكلما جاهد الإنسان شهوات نفسه ووقف في سبيل هواها : كلما زاد إدراكه وضوحا وعمقا للطريق السوي في الحياة .. وكلما زاد إيمانه قوة بالله وبرسالته . ونهاية هذه التجربة النفسية تتجلى في الصفاء النفسي .. وفي الإلهام البعيد عن التأثر بمتع الحياة .. يتجلى في مستوى معين

---

(٣٤) الأنعام : ٢٥

من الزهد أو التصوف .. وهو مستوى التجرد فى الحكم ، والغنى النفسى بالقناعة عن ماديات الحياة .

والرؤية العلمية التى يراها صاحب هذه التجربة أدخل إذن فى معنى : العلم واليقين . لأن تجربة الحس لا تمر وحدها إلى نتائجها . وإنما تصحب هذه التجربة ملاحظة الملاحظ لها .. أى ملاحظة إنسان يرقبها ويتتبع خطواتها . وهذا الإنسان فى مراقبته إياها خاضع للغفلة .. وللتأثر بالجو الذى هو فيه .. وللتقلب فى المزاج والصحة إلى حال .. ونقيضه ، أثناء قيامه بالملاحظة . والأخطاء العلمية هى أخطاء : إما فى ذات التجربة .. أو فى ملاحظتها من الإنسان . والتطور العلمى ما هو إلا طريق يقوم على تصحيح الأخطاء التى تقع فى التجارب المادية أو الحسية ، والتوصل إلى نتائج جديدة قد تعدل غداً ، أيضا . ومع ذلك لا يتلافى التطور العلمى جميع الأخطاء . ويستحيل عليه أن يتلافاها . لأنها من الإنسان المعرض للشىء .. ونقيضه : فى حياته ، وفى ممارسته للمراقبة والملاحظة .

والتطور العلمى ينطوى فى ذاته على اعتراف بعدم تكامل العلم .. أو بعدم وصوله إلى اليقين النهائى .

« وإقبال » فى توضيحه للتجربة الدينية ــ كوسيلة أخرى بجانب التجربة المادية ــ أخذ من الفيلسوف الألمانى « هيجل » .. طريقه فى الوصول إلى وحدة الألوهية .. وكيفية وجود العالم عنه .. واتصاله به .. وهو طريق الدعوة .. ومقابل الدعوة .. والجامع بين الدعوة ومقابل الدعوة . أو هو طريق استخدام النقيض فى مجال « الفكرة » . وقد استخدمه « كارل ماركس » فيما بعد : فى مجال المادة أو الاقتصاد ، ليصل منه إلى سيادة البروليتاريا فى حكومة عالمية .

.. وفى الوقت الذى ينكر فيه الطبيعيون القيمة العلمية للدين ــ لأنه كما يقولون : علم ــ غيبى ، وليس بحسى ــ يجعلون علم الاجتماع فى مقدمة العلوم اليقينية . والمجتمع الذى يبحث ، وتحدد قوانينه ، وتوصف بأنها قوانين علمية ، ويتكون منها ما يسمى بعلم الاجتماع : ليس تجربة مادية خالصة . لأن الإنسان الفرد فى المجتمع ، والذى تقع عليه التجربة فى علاقته

بغيره ، والذى قال فيه هؤلاء الطبيعيون : إنه وحدة مادية فى ظاهره وباطنه . هذا الإنسان ليس « موضوعا » للفعل والانفعال فحسب .. أى ليس موضوعا قابلا فقط ، وليست له فاعلية . بل هو وحدة تتفاعل مع عالمها الذى توجد فيه . فهى كما تقبل الفعل من الغير .. تعطى الفعل للغير . وهذا معناه : أن المجتمع لا يساوق أية كتلة مادية فى الطبيعة ، تلاحظ عليها التجربة .. وتقنن المراحل التى تمر بها هذه التجربة . لأن الكتل المادية الأخرى : كتل ميتة . والإنسان إن كان كتلة من المادة ، ففيه الحياة . والحياة فى الإنسان هى حركة تصدر .. وحركة أخرى تستقبل .

وأصحاب الاتجاه الطبيعى إذن ليسوا أصحاب تجرد فى الحكم . بل حزبية النفرة من الدين ، والرغبة فى التخلص من سلطة الكنيسة : حملاهما على الفصل بين العلم .. والدين . كما حملا رجال السياسة على الفصل : بين الدين .. والدولة .

والاتجاه الطبيعى فى التفكير هو من التحديات المعاصرة التى لم تلق الآن اهتماما فى الفكر الإسلامى المعاصر (٣٥) من أجل توضيح الإسلام ومبادئه على أساس الوحى الإلهى به . ومحاولة إقبال فى توضيح أن الدين تجربة علمية من نوع آخر ، رغم أنها محاولة ناجحة إلا أنها تقصر عن أن تواجه هذا السيل من تفكير الطبيعيين ، لإبعاد الإسلام عن التوجيه ، وبالأخص عن توجيه الشباب المسلم المعاصر .

* * *

● **تحديات الفكر المادى التاريخى :**

والفكر المادى التاريخى هو الفكر الذى يجعل كل ظواهر الوجود ــ وبالأخص تطورات المجتمع البشرى ــ من المادة . أى من الاقتصاد وحده . فالاقتصاد هو العامل الوحيد المحرك للوجود .. وهو صاحب الخالقية والفعل فى تغيير المجتمعات الإنسانية . والمجتمعات الإنسانية ذاتها مرآة تعكس آثار

---

(٣٥) كتاب الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى محاولة فكرية أخرى فى دفع التحدى الطبيعى للاسلام .

الأوضاع الاقتصادية فيها . والمجتمعات الإنسانية بدورها ذات التأثير على الفرد : فى ذاته .. وفى علاقته بالآخرين .

ويلتمس هذا الفكر من بعض أحداث التاريخ الشواهد على ما يدعى . ويستعين بفكرة النقيض عند هيجل : على توضيح تحول المجتمع من وضع معين .. إلى وضع آخر مقابل له . كتحول المجتمع من وضع الإقطاع فى الأراضى والعبيد .. إلى وضع نظام رأس المال فى الصناعة .. ثم إلى وضع البروليتاريا فى الشيوعية الدولية .

ويقوم هذا الفكر على أساس الإلحاد العلمى ، والعداوة التى لا تقبل المهادنة للدين . وقد عرف هذا الاتجاه فى القرن التاسع عشر باسم « السوشيالزم » ، أو الاشتراكية . ثم عرف بعد ذلك باسم الاتجاه الماركسى ، نسبة لليهودى « كارل ماركس » فى القرن التاسع عشر . وفى تطبيقه بعد ثورة أكتوبر الحمراء فى روسيا سنة ١٩١٧ عرف باسم الاتجاه ــ اللينينى . ويعرف فى بعض المجتمعات الإسلامية بأسماء أخرى كالاشتراكية العربية .. أو الناصرية ، أو اليسار العربى ، تستراً على ما يدعو إليه من تقويض الدين باسم الإلحاد العلمى .

ويعيد هذا الاتجاه فى موقفه من اتهام الدين : ما كان يتهم به القدامى من الماديين ــ كمشركى مكة ــ الإسلام : من أنه : كهانة .. وأسطورة .. وأضغاث أحلام .. وسحر .

فيحكى القرآن الكريم قول هؤلاء القدامى بشأن القرآن :

« وقالوا أساطير الأولين اكتتبها » (٣٦) ..

« بل قالوا أضغاث أحلام » (٣٧) ..

« ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » (٣٨) ..

.. ونفى القرآن دعواهم إزاء الرسول عليه السلام : بأنه كاهن فى قول الله تعالى : « **فذكر فما أنت بنعمة ربك** (وهى القرآن) **بكاهن ولا مجنون** » (٣٩) ..

---

(٣٦) الفرقان : ٥ (٣٧) الانبياء : ٥
(٣٨) هود : ٧ (٣٩) الطور : ٢٩

.. ولكن هذا الاتجـاه المادى التاريخى يعيد هـذا الموقف فى تعبيرات أخرى . فيصف الدين مثلا : بأنه أفيون الشعوب . أى مخدر . كما يصفه بالأسطورة .. وبأنه غيبى لا يحمل طابع المعرفة الصحيحة . والقائمون على تنفيذ هذا الاتجاه فى مجتمعاتهم يصفون كل من ينقد نظام الحكم القائم عليه : بأنه مجنون ، ويحتجزونه فى أمكنة المجانين . وقد حكم المكيون على رسول الله عليه السلام بسبب دعوته إلى القرآن : بأنه مجنون :

« **وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر** (أى القرآن ـ ويعنون محمداً عليه السلام ـ) **انك لمجنـــون . لو ما تأتينـــــا بالملائـــكة ان كنت من الصادقين** » (٤٠) .

والقرآن كرسالة لله هو فى الدرجة الأولى : نقد لأوضاع المجتمع قبل الرسالة .. وفى الوقت نفسه : بناء لمجتمع إنسانى جديد .. بدلا من مجتمع الوثنية المادية .

.. وجمال الدين الأفغانى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فى رســالة « الرد على الدهريين » : كما تكفل بالرد على أصحاب الاتجـاه الطبيعى فى الفكر .. تكفل أيضا بالرد على هذا الاتجاه الماركسى (٤١) الذى كان معروفا إذ ذاك : بالسوشيالزم .. أو بالاشتراكية .

.. وفى رد جمال الدين الأفغانى على أصحاب هذا الاتجاه تناول ثلاث نقاط :

الأولى : من هم الاشتراكيون . والشيوعيون ، فى الغرب ، والشرق ؟ .

الثانية : ما بين : مزدك .. وماركس .

الثالثة : أوجه المشاركة فى الحديث .. والقديم .

ففى النقطة الأولى : يقول :

« هذه الطوائف تتفق فى ســلوك الطريقة الدهرية (وهى : الإلتحــاد

---

(٤٠) الحجر : ٦

(٤١) وقد وردت فى صورة مستقلة رسالة « تهافت الفكر المادى التاريخى ، بين النظـــر والتطبيق » من مؤلفاتنا ـ على هذا الاتجاه .

بالدين .. والإيمان بالطبيعة وحدها) . زينوا ظواهرهم بدعوى : أنهم سند الضعفاء .. والمطالبون بحقوق المساكين والفقراء .

« وكل طائفة منها ، وإن لونت وجه مقصدها بما يوهم مخالفته لمقصد الأخرى ، إلا أن غاية ما يطلبون : إنما هو رفع الامتيازات البشرية كافة .. وإباحة الكل : للكل واشتراك الكل : فى الكل .

« وكم سفكوا من دماء .. وكم هدموا من بناء .. وكم خربوا من عمران .. وكم أثاروا من فتن .. وكم أنهروا من فساد . كل ذلك : سعياً فى الوصول إلى هذه المطالب الخبيثة (الإباحة .. والاشتراك) . وجميعهم على اتفاق : فى أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة .. وفيض من فيوضها . والأحياء فى التمتع بها سواء . واختصاص فرد من الإنسان بشيء منها دون سائر الأفراد (يشير إلى الملكية الخاصة) بدعة فى شرع الطبيعة السيئة ، يجب محوها والإراحة منها [٤٢] .

● موقفهم من الدين .. والملكية :

ومن مزاعمهم : أن الدين .. والملك عقبتان عظيمتان ، وسدان منيعان يعترضان بين أبناء الطبيعة ، ونشر شريعتها المقدسة : (الإباحة .. والاشتراك) . وليس من مانع أشد منهما . فإذن من الواجب على طلاب الحق الطبيعى : أن ينقضوا هذين الأساسين ويبيدوا الملوك .. ورؤساء الأديان . ثم يعمدون إلى الملاك ، وأهل السعة فى الرزق . فإن دانوا لشرع الطبيعة فخرجوا عن الاختصاص (أى الملكية وتنازلوا عنها) فتلك .. وإلا أخذ بأعناقهم قتلا ، وبأكظامهم خنقا ، حتى يعتبر بهم من يكون أمثالهم . فلا يلوون رؤسهم كبراً على الشريعة المقدسة (وهى شريعة الطبيعة) ولا تزور أعناقهم عصيانا لأحكامها [٤٣] .

● منافذ تسربهم :

« نظر أبناء هذه الطوائف فى وجوه الوسائل لبث أفكارهم .. والإفضاء

---

(٤٢) كتاب الرد على الدهريين ص ٩٠ ، الناشر دار الكرنك ــ القاهرة ــ عمارة رمسيس ــ ميدان رمسيس باب الحديد : تحقيق الشيخ محمود أبو رية .

(٤٣) المصدر السابق ص ٩١ .

بما فى أوهامهم : إلى قلوب العامة (الجماهير) فلم يجدوا وسيلة أنجح فى زرع بزور الفساد فى النفوس : من وسيلة التعليم : إما بإنشاء المدارس . تحت ستار نشر المعارف ، أو بالدخول فى سلك المعلمين فى مدارس غيرهم ، ليقرروا أصولهم فى أذهان الأطفال ، وهم فى طور السذاجة : فتنتقش بها مداركهم بالتدريج .

« فمن أولئك الدهريين : من همه بناء المدارس ، ودعوة الناس إليها . ومنهم متفرقون فى بلاد أوروبا يطلبون وظائف التعليم ، وينالون من ذلك طلبهم . وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة . وبهذا كثرت أحزابهم .. ونمت شيعتهم فى أقطار الممالك الأوربية ، خصوصا فى مملكة الروسية .

« ولا جرم : أن هذه الطوائف إذا استفحل أمرها ، وقوى ساعدها على المجاهرة بأعمالها : فقد تكون سبباً فى انقراض النوع البشرى ، كما تقدم ذكره . أعاذنا الله شرور أقوالهم وأعمالهم » (٤٤) .

● ومن هم فى الشرق :

« أما منكرو الألوهية ، أعنى الدهريين (الاشتراكيين ـ الشيوعيين) الذين ظهروا فى لباس المهذبين ، ولونوا ظواهرهم بصبغ المحبة الوطنية (القومية) وزعموا أنفسهم طلاب خير الأمة .. فصاروا بذلك شركاء اللص ، ورفقاء القافلة ، ثم تجلوا فى أعين الأغبياء : حملة لأعلام العلم والمعرفة ، وبسطوا للخيانة بساطا جديدا . وتولاهم الغرور بما حفظوا من كلمات قليلة ناقصة ، غير تامة الإفادة ، مسروقة من أوهام المبطلين وفتلوا سبالهم ، كبراً وعلوا ، ولقبوا أنفسهم بالهادين .. والأدلاء ، وهم فى أطباق جهل وأوثاق غباوة ، وفى آهب من دنس الرذائل ، ومسوك من قذر الذمائم . فأولئك قوم ، قوى فيهم الظن : بأن العقل وثمرته من المعرفة ينحصران فى تبين وجوه الغدر ، وتعرف طرق الاختلاس . وإننى لفى خجل من ذكرهم ، يدافعنى الحياء عن رواية سيرهم ، وحكاية أعمالهم . فإن مقاصدهم من

---

(٤٤) المصدر السابق ص ٩١ ــ ٩٢

الدناءة بحيث لا تخرج عن جيوبهم : يسعون فى اقتلاع أساس أمتهم لشهوة بطونهم .. يحدون شفارهم لتقطيع روابط الالتئام بين بنى جنسهم ، لا يبتغون بذلك عوضا سوى حشو معدهم . وما أضيق مجال تفكيرهم ! .

.. إلى الآن لم يخط أحدهم خطوة خارج كرشه .. ولم يمد واحد منهم رجله لأبعد من فراشه . وليس فى وسع القلم أن يتحرك فى هذا المجال الضيق . غير أنه يمكن أن يقال إنهم : « بياجو » لغيرهم . أى سيئوا التقليد لهم » (٤٥) .

● بين مزدك ـ وماركس :

ويقول جمال الدين الأفغانى فى الصلة بين الاثنين : « انتحل مزدك لنفسه لقب : رافع الجور .. ورافع الظلم . وبنزعة من نزعاته قلع أصول السعادة من أرض الفارسيين . نسفها فى الهواء ، وبددها فى الأجواء ، فإنه بدأ تعاليمه بقوله : جميع القوانين .. والحدود والآداب (الأخلاق) التى وضعت بين الناس : قاضية بالجور ، مقررة للظلم . وكلها مبنى على الباطل . وإن الشريعة الدهرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن . وقد بقيت مضمونة فى حرزها ، عند الحيوانات والبهائم ..

« أى عقل ، وأى فهم يصل إلى سر ما شرعته (الطبيعة) ؟ .

« وأى إدراك يحيط بمثل ما أحاط به ، وقد جعلت الطبيعة حق : المأكل ، والمشرب ، والبضاع .. مشاعاً بين الآكلين .. والشاربين .. والمباضعين ، بدون أدنى تخصيص ؟ . فما الحامل للإنسان على حرمان نفسه من بضاع : ابنته .. وأمه .. وأخته ؟ ثم تركهن لغيره يتمتع بهن : انقياداً لما يخيله له الوهم ، مما نسميه شريعة ، وأدباً (أخلاقا) ؟ .

« وأى حق يستند إليه من يدعي : ملكية خاصة فى مال يتصرف فيه دون سواه ، مع أنه شائع بينه وبين غيره ؟ .

« وأى وجه لمن يحجر على امرأة دخلت فى عقده ، ويحظر على الناس : نيلها ، وقد خلق الذكر للأنثى .. والأنثى للذكر ؟

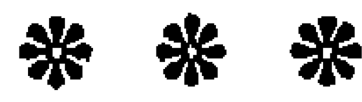
---

(٤٥) المصدر السابق ص ٩١

« وماذا يوجد من العدل فى قانون يحكم بأن المال الشائع ــ إذا تناولته يد مغتصب بما يسمونه بيعا وشراء .. أو إرثا ــ يكون مختصا بذلك المغتصب ، ثم يحكم على الفقير المحروم ، إذا احتال لأخذ شيء من حقه والتمتع به : بأنه خائن .. أو غاصب ؟

« فإن كان هذا شأن تلك القوانين الجائرة ، فعلى الإنسان : أن يفك أغلالها من عنقه ، ويطرح كل قيد عقدته القوانين والشرائع .. والآداب ، التى لا واضع لها سوى : العقل الإنسانى الناقص ، وليرجع إلى سنة الطبيعة المقدسة ، ويقضى حق شهوته من اللذائذ التى أباحتها له : بأى وجه من الوجوه .. ومن أية الطرق ، ويأخذ فى ذلك مأخذ البهائم . وعليه أن يقاوم الغاصبين ، المتحكمين فى الحقوق : قسرا . أى المالكين للأموال .. والأبضاع ، فيخرجهم عن سوء فعالهم من الغصب .. والجور (أى من حق التملك) .

« فلما ذاعت هذه النزعات الخبيثة بين الأمة الفارسية : تهتك الحياء .. وفشا الغدر والخيانة .. وغلبت الدناءة والنذالة .. واستولى حكم الصفات البهيمية على نفوسهم .. وفسدت أخلاقهم .. ورذلت (أى وصلت إلى الخسة) طباعهم . نعم إن « أنو شروان » قتل مزدك ، وجماعة من شيعته . ولكنه لم يستطع محو هذه الأوهام الفاسدة ، بعد ما علقت بالعقول .. والتبست نفايتها بالأفكار . فكان علة فى ضعفهم ، حتى إذا هاجمهم العرب لم تكن إلا حملة واحدة فانهزموا . مع أن الروم ــ وهم أقران الفارسيين ــ ثبتوا فى مجالدة العرب ، ومقاتلتهم : أزمانا طويلة » (٤٦) .



● **أوجه المشاركة فى الحديث .. والقديم :**

ويقول جمال الدين كذلك : « وقد تبين : أن أول تعاليم « النيتشريين » أبطال هذين الاعتقادين :

« أولا : الاعتقاد بالله ..

---

(٤٦) المصدر السابق ص ٧٧ ــ ٧٩

« وثانيا : الاعتقاد بالحياة الأبدية (الحياة الأخروية) : وهما أساس كل دين .

« فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الإنسانية ، وتذريته فى ذيول السافيات . يطلبون ضعضعة أركان المدنية .. وفساد الأخلاق البشرية . ويقوضون بذلك ما رفعه العلم ، وشادته المعرفة . فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة ، وإخماد ريح الحمية ، هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة .. وأرومات الرذالة والدناءة .. وأحلاس الخسة والنذالة .. وأعلام الكذب والافتراء .. ودعاة الحيوانية العجماء . محبتهم كيد .. وصحبتهم صيد .. وتوددهم مكر .. ومواصلتهم غدر .. وصداقتهم خيانة .. ودعواهم للإنسانية حبالة .. ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة .

« يخونون الأمانة .. ولا يحفظون السر .. ويبيعون ألصق الناس بهم بأدنى مشتهياتهم .. عبيد البطون .. وأسراء الشهوات . لا يستنكفون من الدنية ، إذا أعقبتها عطية . ولا يخجلون من الفضيحة ، إذا تبعتها رضيخة (أى عطية قليلة) . لا علم عندهم بالوقار .. ولا إحساس لهم بالعار .. ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر .. ولا وصل إليهم عن الهمة عبارة معبر ، أو تفسير مفسر . الابن فيهم لا يأمن أباه . والبنت لا أمان لها من كليهما » (٤٧) .

« نعم أى حد تقف دونه حركات طبع الطبيعين (وفى مقدمتهم : الاشتراكيون .. والشيوعيون) .

« قد يوجد بين الناس من تغره نعومة لمس هذه الأفاعى .. وتروقه رقطة جلودها ، وانتظام الرقش فيها ، فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم ، فيصغى لزخرف قولهم ، ويظن : أن هؤلاء القوم من طلاب التمدن (التقدم) والأعوان على الإصلاح ، أو من الراغبين فى بث المعارف ، أو المنقبين عن الحقائق .. أو يتخيل : أن منهم من يكون عونا عند الضيق .. أو عونا فى الشدة .. أو مخزنا للأسرار عند الحاجة . فذلك المغرور بمظاهر

---

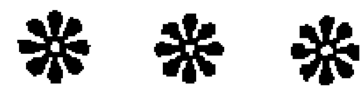
(٤٧) المصدر السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤

هذه الطائفة لا محالة يبكى عليه .. ويضحك منه . فالضحك عجبا من غروره .. والبكاء حزنا على ضلاله » [٤٨] .

« .. ولما كان نظام الأكوان قد بنى على أساس الحكمة .. ونظام العالم الإنسانى جزء من النظام الكونى : ألهم الله نفوس البشر أن تفزع إلى مقاومة أولئكم المفسدين فى أى زمان ظهروا! .. ومدافعة ما يعرض من شرهم ، كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة ، والنفرة من الأغذية السامة ، وأنهض حفاظ النظام المدنى الحقيقى ــ وهو الدين ــ لبـذل الجهـد .. وإفراغ الوسع فى محو آثارهم ، واستئصال ما يغرسون فى تعاليمهم .

« لا جرم أن مزاج الإنسان الكبير (يقصد عموم النوع الإنسـانى) بما أودع الله فيه من الشعور الفطرى ــ وهو أثر الحكمة الإلهية العامة ــ يمج هؤلاء الخونة ، ولا يحتمل وجودهم فى باطنه ، فيدفعهم ، كما تدفع الفضلات من المعدة ، أو الذنانة من المنخر ، أو النخامة من الصدر . لهذا تراهم وإن حلوا بعض منازل الأرض من زمان بعيد ، وأيدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوى الشوكة لأغراض سافلة إلا أنهم لم يثبتوا ، ولم يتم لهم الأمر . بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف ، كلما ظهر انقشع .

« والنظام الحقيقى لنـوع الإنسـان ــ وهو الدين ــ لم يزل قائما راسخا ، فى جميع الأجيال ، وعلى أى الأحوال . فلم تبق ريبة فى أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه : فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة ، والنعيم الكامل ، ويذهب بمعتقديه فى جوار الكمال الصورى والمعنوى ، ويصـعد بهم إلى ذروة الفضـل الظاهـرى والباطنى ، ويرفع أعلام المدنية لطلابها . بل يفيض على المتحدثين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين » [٤٩] .



(٤٨) المصدر السابق ص ١٠٤

(٤٩) المصدر السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦

● اوجه المشاركة فى الفكر :

أولا : وهنا يلخص جمال الدين هذه الأوجه ، ويتحدث عنها فيقول :
« لقد وضعوا مذاهبهم على بطـلان الأديان كافة ، وعـدها أوهاما باطلة ومجعولات وضعية ..

ثانيا : قالوا : إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات ، وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم ، بل هو أخس منها خلقة ، وأدنى فطـرة . فسهلوا بذلك على الناس إتيان القبائح ، وهونوا عليهم اقتراف المنكرات ومهدوا لهم طرق البهيمية ، ورفعوا عنهم معايب العدوان .

ثالثاً : ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة ، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية : تنبت فى الربيع مثلا ، وتيبس فى الصيف ، ثم تعود ترابا . والسعيد من يستوفى فى هذه الحياة : حظوظه من الشهوات البهيمية .

« وبهذا الرأى الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثيم ، ودفعوا إلى أنواع العدوان ، من : قتل .. وسلب .. وهتك عرض . ويسروا لها الغدر والخيانة ..وحملوها على فعـل كل خبيثة .. والوقـوع فى كل رذيلة .. وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشرى » (٥٠) .

« ويزيد فى شناعة ما ذهبوا إليه ، أن فى أصولهم : الإباحة والاشتراك المطلقين ، فيزعمون أن جميع المشتهيات حق شائع ، والاختصاص بشىء منها يعد اغتصابا ..

فلم يبق للخيانة محل ، فإن الاحتيال لنيل الحق لا يعد خيانة ، ومثلهـا الكذب ، فإنه يكون وسيلة للوصول إلى حـق مغتصب ـــ فى زعمهم ـــ فلا يعد ارتكاباً للقبيح .

« لا جرم أن آراء هذه الطائفة مروجة للخيانات .. باعثة على افتراء الأكاذيب .. حاملة للأنفس على ارتكاب الشرور والرذائل ، وإتيان الدنايا والخبائث » (٥١) .

---

(٥٠) المصدر السابق ص ٤٦

(٥١) المصدر السابق ص ٦٦

● **فى الأثر على الانتاج والعمل الانسانى الرفيع :**

« وهذه الطائفة النيتشرية تسعى لتقرير الاشتراك فى المشتهيات ، ومحو حدود الامتياز ، ودرس رسوم الاختصاص ؛ حتى لا يعلو أحد عن أحد ، ولا يرتفع شخص عن غيره فى شىء ما ، ويعيش الناس كافة على حد التساوى ، لا يتفاوتون فى حظوظهم .

« فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح فى سعيها هذا ، ولاق هذا الفكر الخبيث بعقول البشر ، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل : فلا تجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة ، ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة ، طلبا للمساواة فى الرفعة . فإن حصل ذلك اختل نظام المعيشة ، وتعطلت المعاملات ، وبطلت المبادلات ، وأفضى إلى تدهور هذا النوع فى هوة الهلاك .

« نعم إن أفكار المصابين بالماليخوليا لا تنتج أحسن من هذه النتيجة . ولو فرضنا محالا وعاش بنو الإنسان على هذه الطريقة العوجاء ، فلاريب أن تمحى جميع المحاسن ، وضروب الزينة ، وفنون الجمال العملى ، ولا يكون لبهاء الفكر الإنسانى أثر ، ويفقد الإنسان كل كمال ظاهر أو باطن ، صورى أو معنوى ، ويعطل من حلى الصنائع ، وتغرب عنه أنوار العلم والمعرفة ، ويصبح فى ظلام جهل ، وبلاء أزل ، وينقلب كرسى مجده ، وينثل عرش شرفه ، ويصحر فى بادية الوحشية كسائر أنواع الحيوان ، ليقضى فيها أجلا قصيراً مفعما بضروب الشقاء ، محاطا بأنواع من المخاوف ، محشوا بأخلاط من الأوجال والأهوال .

« فإن المبدأ الحقيقى لمزايا الإنسان : إنما هو حب الاختصاص ، والرغبة فى الامتياز فهما الحاملان على المنافسة ، السائقان إلى المباراة والمسابقة . فلو سلبتهما أفراد الإنسان : وقفت النفوس عن الحركة إلى معالى الأمور ، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات ، واكتشاف حقائق الموجودات ، وكان الإنسان فى معيشته على مثال البهائم البرية ــ إن أمكن له ذلك ــ وهيهات هيهات » ! (٥٢) .

---

(٥٢) المصدر السابق ص ٦٧ ، ٦٨

تلك تحديات الفكر المعاصر الذى تسرب وكاد يستوطن فى المجتمعات الإنسانية .. فى تفكير الخاصة والعامة على السواء . وهى تحديات تتطلب قوة الإيمان بالإسلام .. وحسن الفهم والعرض لمبادئه فى مواجهة هذه التحديات ، خشية من ضياع شباب اليوم .. وذهاب الإسلام لفترة لا يعلم مداها إلا الله .

إن التحديات المعاصرة للإسلام .. ولكتاب الله .. ولإيمان المسلمين بهما : هى تحديات تصور جولة قاسية ضد القرآن ، من أولئكم الملحدين الصادين عن سبيل الله .. ومن رفقائهم فى الاستعمار ، الذين تدفعهم نوازع السيطرة والاستغلال وراء الصليبية العالمية .. هى تحديات شرسة ، وكريهة ، نفذت بالفعل إلى شرايين الحياة الإسلامية .. وتواجه الآن وجها لوجه : الإيمان بالإسلام فى قلوب ملايينهم ، وبالأخص : قلوب الشباب .

وإن هذه التحديات فى قوة دفعها ..وفى شراسة تشبثها بعقول المسلمين .. وفى نفاذها المحكم : تواجه مع ذلك ضعفا بيننا .. أى بين دعاة الإسلام وعلمائه . وقد تواجه استسلاما من بعضهم .. أو قبولا عند البعض الآخر فى غفلة من الإيمان لديهم .. أو فى يقظة تلتبس بها آمال مؤقتة وزائلة .

وعندما يتسرب الإلحاد إلى قاعات الدراسة فى جامعة الأزهر باسم التبادل الثقافى ، يحمله الصادون عن دين الله من جامعة « كارل ماركس » بالقسم الشيوعى من ألمانيا .. أو بأى اسم آخر : فقد دق عندئذ ناقوس الخطر ، ينذر : بأن شعار : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله ، قد أحاطت به سواعد الفناء : فى معقله وفى حصنه الأخير .

وإن الله لا يحفظ دينه إلا بقلوب المؤمنين به . فإيمان القلوب هو الذى يرعى دين الله بالحفظ .. ويحول دون النيل منه فى وجه الظالمين .

فهل لدينا بقية من إيمان تتصدى بها لشرح دين الله ، ورد الشبهات السافرات . وهى سهام قاتلة ، توجه من هنا .. وهناك : إليه ؟ .

إن هذا الحديث عن التحديات للقرآن بالأمس .. واليوم : هو أولا : عرض لخطة الأسلاف منا ، فى الدفاع عن العقيدة والإيمان بها . ومهما يكن

فى خطتهم من نقاط ضعف أو سلبيات : فقد قاموا بواجبهم بالفعل نحو دين الله ، فى مواجهة الرواسب الفكرية والأيديولوجية فى المجتمعات الإسلامية .

وفى الوقت نفسه هو ثانيا : تصوير مجمل للمشاكل والتحديات المعاصرة التى يرمى بها الإلحاد العلمى .. وتدفع بها الصليبية الدولية معه للتشويش على الإسلام أملا فى انصراف الأجيال التى ستحمل المسئولية غداً فى المجتمعات الإسلامية : عنه ، وعن مبادئه وبذلك تهتز أقدام المسلمين على أرض مجتمعاتهم .. ويعيشون أتباعا لسلطان غيرهم .. وعلى الفتات الباقى من ثروات بلادهم ، والتى يعملون فيها آنئذ لحساب هؤلاء الأسياد .. أو لأولئكم .

فهل يسمع النداء ؟ .. وهل من مجيب ؟

* * *

محتويات الكتــاب

الصفحة

الصفحة

الباب الثاني : صنعة الانسان حول كتاب الله

(٧٩ – ٨٠)

الفصل الأول : القرآن والتفسير الموضوعى

(٨١ – ١١٢)

الفصل الثانى : القرآن والتحديات بين الأمس واليوم

(١١٣ – ١٤٧)

الصفحة

* * *

رقم الايداع : ٥٦٦٧ / ٨٥
الترقيم الدولى : ٦ ـ ٠٦٨ ـ ٣٠٧ ـ ٩٧٧

مطابع المختار الاسلامي

هذا الكتاب

« **نحو .. القرآن** » يوضح :

● ان الناس يختلفون فى اقترابهم من القرآن :

منهم من يقترب منه ليسىء اليه بتوجيه الاتهام اليه ــ كان ذلك فى الماضى .. وهو فى الحاضر الآن : **من هم فى الماضى ؟ .. ومن هم فى الحاضر ؟ ..**

ومنهم من يقترب منه مخلصا ، ولكن قد يسىء اليه بطريقته فى التفسير .. او بتوضيح حجيته فى الاعجاز . كان ذلك فى الماضى .. ولم يزل فى الحاضر ..

ومنهم من يقترب منه فى خشية ، وهو فى حرص على ان يلهمه الله الصواب : ان جعل منه بالتفسير الموضوعى منهجاً فى حياة المؤمن .. وبموضوعيته فى التوجيه .. وملاءمة مبادئه لخصائص الطبيعة البشرية : حجة على اعجازه ..

● **كما يوضح** : ان المادية اليوم تثير نفس الاتهامات التى آثارتها الجاهلية على عهد الرسالة .. وان اسلوب رد تلك الاتهامات لم يزل هو نفس اسلوب ردها بالأمس ، كما تكفل القرآن ..

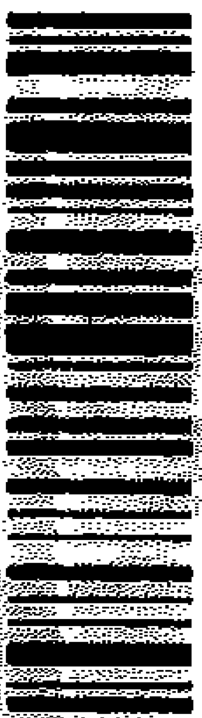
● **واخيراً يوضح** : أن التحديات التى اتت بها روافد الثقافات الأجنبية فى الماضى وجدت من علماء المسلمين بالأمس : مدافعين ضدها ، وأن تخلف عن جدلهم تعقيد العقيدة بعد يسر القرآن فى عرضها ...

وأن التحديات المعاصره ــ وهى تحديات مستوردة ايضاً ــ وجدت من المسلمين فى الحاضر من يتبناها . بينما ضعف علماء المسلمين فلم يحاولوا فهمها ، فضلا عن مواجهتها .. وما هى الاتهامات ؟ .. وما هى التحديات ؟ .. وما هى موضوعية التوجيه ؟ ..

وما هى مبادىء الدين التى تلائم خصائص الطبيعة البشرية ؟ ..

● وبأسلوب سهل يبسط لنا **الأستاذ الدكتور محمد البهى** : هذه ا[illegible] وخفاياها وما التبس فيها بأفاعيل المفرضين والجاهلين .. ثم يحـ[illegible] تشويش المرتدين رداء « الاسلام » وقلوبهم خاوية منه ..

● ويسر « **مكتبة وهبة** » ان تقوم بنشر هذا الكتاب . ليكون م[illegible] امام المسلمين ــ ينير الطريق ــ « **نحو .. القرآن** » ..





مكتبة وهبة